

إرنست ماندل

أكتوبر 1917:

انقلاب أم ثورة اجتماعية؟ مشروعية الثورة الروسية

إعداد إلكتروني: جريدة المناضلة



*وصول الفاشيين (موسوليني) إلى السلطة بإيطاليا.

*فشل نهائي للثورة الألمانية (1923).

*مرض لينين (منذ 1922) ثم وفاته (1924).

1925-1935

*الإرساء التدريجي للنظام الستاليني.

*نهاية النيب (1928). التجميع القسري في الأرياف.

*أزمة اقتصادية عالمية.

*هتلر مستشاراً (1933). إرساء النظام النازي بألمانيا.

*صعود الثورة الصينية الثانية وهزمتها (1925-1927).

1936-1939

*الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939). هزيمة الجمهوريين.

*انتصار انتخابي للجبهة الشعبية في فرنسا (1937).

*محاكمات موسكو. بداية التطهيرات الكبرى.

*بداية الحرب العالمية الثانية (1939).

*أيام تموز/يوليو: ثورة أم ثورة مضادة؟

*ثورة أوكتوبر: إرساء سلطة السوفييتات.

*حركات ضد الحرب في البلدان المتحاربة.

1918-1920

*حل الجمعية التأسيسية.

*جمهورية المجالس في فنلندا.

*توقيع صلح برست-ليتوفسك.

*نهاية الحرب العالمية الأولى.

*بدايات الحرب الأهلية المعقدة.

*أول موجة ثورية في ألمانيا (1918).

*صعود ثوري في النمسا.

*اغتيال لوكسمبورغ ولبنخت في ألمانيا (1919).

*تأسيس الأمية الثالثة.

*المؤتمر الأول لشعوب الشرق في باكو.

*جمهورية المجالس في هنغاريا وبافاريا.

*انقلاب كاب-فون لوتفيتز في ألمانيا (1920).

1921-1924

*تمرد كرونشطاط.

*نهاية الحرب الأهلية. المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي. بداية النيب.

*موجات جديدة للنضالات في ألمانيا وإيطاليا.

أصدرت دار الالتزام عام 1998 الترجمة العربية لكتيب
إرنست ماندل " أكتوبر 1917: انقلاب أم ثورة اجتماعية؟
مشروعية الثورة الروسية

في ذكرى الثورة. نعرف بالكتيب بنشر مقدمة الطبعة
العربية ونصين: الأول تقديم للرفيق فرانسوا فركامن
بعنوان "أطوار ثورة عام 1917" والثاني لماندل بعنوان
"مفاهيم لينين التنظيمية".

مقدمة الطبعة العربية:

بقلم: كميل داغر

صدر هذا النص لأرنست ماندل عام 1992، بعد سنة واحدة على انهيار الاتحاد السوفيتي. وقبل ثلاث من غياب هذا المفكر والقيادي الماركسي الثوري الكبير. كان ماندل حريصا على أن يقدم إسهامه. قبل الوفاة. في الدفاع. أمام الأجيال الحالية والقادمة. عن ثورة أكتوبر. ودور البلاشفة فيها وعلى رأسهم لينين.

في غضون ذلك، كانت أصوات كثيرة إضافية قد أثارت المزيد من الضجيج ضد هذه الثورة. وهو أمر يستمر إلى الآن. وتساهم فيه أبواق من شتى أنحاء العالم. بما في ذلك في بلدنا الصغير لبنان.

هكذا لم يفت الرئيس الروسي الحالي، بوريس يلتسين، الذي سبق أن كان مرشحا لعضوية المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي. في بدايات بيرسترويكا. وزعيما لمنظمة الحزب في موسكو (!!!). أن يساهم. من ضمن جوقة المشنعين العالمية. في الأحكام القمعية الكاذبة ضد هذه الثورة. في الذكرى الثمانين لقيامها. معلنا في خطبة ألقاها آنذاك (في 7 تشرين الثاني/نوفمبر 1997) أن

"الثورة كانت خطأ تاريخيا عظيما، بل قاتلا. لأنها اعتبرت أن التعلق بمثالية طوباوية أهم وأثمن من الحفاظ على الحياة الإنسانية. حياة البشر". مضيفا أن "الثورة هي التي تسببت بصراع مجتمعي وبحرب أهلية بين المواطنين الروس... والثورة هي التي عزلت روسيا عن المجتمع الدولي فترة طويلة... وهي التي جعلت الاتحاد السوفييتي دولة عظمى إما تشعبها يعيش في البؤس... الخ"

وبالطبع فإن بوريس يلتسين، الذي قال هذا الكلام قبل أقل من عام. كان يعرف مسبقا أن تجربة العودة إلى الرأسمالية التي يخوضها نظامه. منذ أواخر 1991، لم تؤد فقط إلى فرط البلد المذكور وتمزيقه. بل للوصول أيضا بالدولة الروسية على حافة الإفلاس. وبالغالبية الساحقة من الشعب الروسي إلى حالة من البؤس لا مجال لمقارنتها. من قريب أو من بعيد. بما كان عليه. حتى في المرحلة النهائية من انحطاط الدولة السوفييتية. قبل ثمانية أعوام!!

والوقاحة والنفاق لم يكونا حكراً على قائد الردة الروسي، الموغل بلده الآن في مأزق خطير. بل تشارك فيهما جمهرة من الكتاب و"المفكرين". من خدم رأس المال والمدافعين عن نظامه العالمي. وبينهم المؤلفون الفرنسيون لما سموه "كتاب الشيوعية الأسود". الذي يورد رقماً أسطوريا: 85 مليون قتيلا!! هم في نظر ناشره ومقدمه، ضحايا "الشيوعية". في الاتحاد السوفييتي السابق!! وهو رقم استعاده كما هو صاحب جريدة النهار البيروتية. في إحدى افتتاحياته (17 تشرين الثاني/نوفمبر 1997). محجما عن أي محاولة لتدقيقه. أو التساؤل عن مدى صدقيته. من جهة. ومعنا. من جهة أخرى. في حملة التشنيع على "المثالية الطوباوية الاسمها الشيوعية". بحسب تعبيره. ومتجاهلا بالكامل واقع أن الستالينية -التي كان عدد ضحاياها كبيرا. بالتأكيد. لكنه بقي بعيدا جدا عن

*المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي.

*الانقسام بين بلاشفة ومناشفة.

1904-1907

*الحرب الروسية-اليابانية (1904-1905)

*صعود الثورة الروسية وهزيمتها (1905-1907)

*مؤتمر شتوتغارت للأمية الثانية (1907)

1907-1912

*سنوات رجعية وضعف (ح ع ا د ر)

*انشقاق البلاشفة والمناشفة إلى حزبين منفصلين (1912)

1913-1914

*مؤتمر بال للأمية الثانية (1912).

*صعود ثوري للنضالات العمالية في روسيا.

*بداية الحرب العالمية الأولى.

*أزمة الأمية الثانية.

1914-1917

*سنوات امتداد الحرب العالمية. مذبحه لا نهاية لها؟

1917

*ثورة شباط/فبراير: إطاحة القيصرية. ظهور ازدواجية السلطة.

الرقم الخرافي المذكور أعلاه- كانت ثورة مضادة حقيقية لا علاقة لها بثورة أكتوبر. وبالفكر الشيوعي. لا بل قامت على أنقاضهما. وكانا بين أولى ضحاياها!!

كتاب أرنست ماندل -الذي صدر قبل نشر هذه الترهات والأكاذيب. في حلتها الجديدة. بسنوات-. كما لو انه يرد عليها اليوم من ضمن ما يرد عليه من هجمات مناقفة كثيرة سبق أن تجاوزت أصدائها على امتداد هذا القرن. في شتى أصقاع الأرض.

ثورة ديمقراطية أصيلة

لقد ركز ماندل على أن استلام السلطة في أكتوبر 1917 لم يكن عملاً انقلابياً. بل ناخ سيرورة ديمقراطية حقيقية أتاحت للبلاشفة أن يحوزوا عشيبة أكتوبر غالبية واضحة في جهاز ازدواجية السلطة الذي استعاد في شباط/فبراير 1917 ما أبدعته مخيلة عمال بتروغراد خلال ثورة 1905: السوفييتات. بات لهم 390 مندوباً من أصل 650 في المؤتمر الوطني لمجلس العمال والفلاحين والجنود الذي كان مدعواً للانعقاد في نهاية أكتوبر 1917. "كانت الجماهير حياً وتتنفس". بحسب المؤرخ الاشتراكي-الثوري. سوخانوف. "بالانسجام مع البلاشفة. كانت بين يدي حزب لينين وتروتسكي".

هذا وقد اهتم ماندل بوجه خاص بتفنيد تزوير آخر للتاريخ مفاده أن الحزب الذي قاد تلك الثورة ضم شلة من المتعصبين حركهم قائد متعطش للسلطة المطلقة. ميرزا التناقض العميق بين ما مثله لينين من أفكار وممارسات. ما شكل جوهر الستالينية. في ما بعد. رادا بذلك على كل الذين حاولوا. سواء قبل انهيار الاتحاد السوفييتي أو بعده. أن يجعلوا من ستالين امتداداً طبيعياً لقائد ثورة أكتوبر!

فعلى الصعيد الشخصي. يدحض ماندل الصورة التي سعى العديدون لإعطائها عن الرجل بوصفه مصاباً بهوس السلطة الشخصية المطلقة. ناقلاً ملاحظات نقاد حازمين له لم تمنعهم حدة النقد من أن يروا إنساناً هو ابعده ما يكون عن صورة الرجل الحديدي الذي "لا قلب له. ولا يتيح غير قرارات سياسية". لقد كان بحسب نيقولا فالانتينوف. "يُعبد الحقول. والمروج. والأنهار. والجبال والبحر والمحيط".

بالمقابل. إن بعده عن أدنى ميل لعبادة الذات. لا بل نفوره الشديد من ذلك. يظهران بجلاء في رد فعله الراض اقتراح اللجنة المركزية نشر أعماله الكاملة: "هذا غير نافع إطلاقاً". يقول. ويلتقي هذا التقويم مع ما كان توصل إليه مارسيل ليبمان (*). بخصوص التقشف الأسطوري لدى الرجل. وبساطته وتواضعه الاستثنائيين. هو الذي "كان ينتظر دوره حين يذهب إلى الحلاق. معتبراً من غير اللائق أن يُحى أحد أمامه. وإذ يلاحظ أنه لم تعد هناك أمكنة شاغرة في صالة المسرح. حيث يود متابعة عرض مسرحي. يستعد للعودة إلى بيته". وقد روى عنه ليبمان كيف رد على قرار الحزب الاحتفال بعيد ميلاده الخمسين. كتب المفكر الماركسي البلجيكي: "خلال الاجتماع المنظم بهذه المناسبة. حين بدأت المدائح تزدهر على المنبر نهض لينين وخرج من القاعة. وبعد أن عاد إلى مكتبه

(8)مرجع مذكور. ص 47.

(9)أ.غولد شميدت. Moskau 1920. برلين. 1920.

(10)إن باكيه هو الذي أطلق في أحد كتبه الاتهام الشائن المشهور ضد سلطة السوفييتات بأنها "شُركت النساء". وهو يورد في هذا الصدد مرسوماً مزعوماً لفوضوي ساراتوف. وهو مرسوم ندد به هؤلاء فوراً على أنه استفزاز فظ.

(11)أ.باكيه Der Geidt Der Russischen Revolution ميونيخ 1920. ص 69. ولأجل المعلومات حول الأشخاص المتشهد بهم هنا. انظر المعجم.

(12)موريزيه. مرجع مذكور. ص 194-195.

(13)بيريل وليامز. مرجع مذكور. ص 93-93.

(14)أ.باكيه. مرجع مذكور. ص 40/51-52.

(15)أ.غولد شميدت. مرجع مذكور. ص 20.

Der Geidt Der Russischen Revolution (16)مرجع مذكور. ص 75.

(17)و.ج.رونزبرغ. "العمل الروي والسلطة البلشفية. الأبعاد الاجتماعية للاحتجاج في بتروغراد بعد أكتوبر 1917, The View from Below" مرجع مذكور. ص 98.

(18)انظر بوجه خاص في هذا الصدد ايلين-زينيفكي. مرجع مذكور. ص 32-33. وأ.موريزيه.

(19)اندرية موريزيه. مرجع مذكور. ص 111.

(20)س.أ.سميث. Red Petrograd. مرجع مذكور. ص 243-244.

(21)استشهاد وارد في أ.ر.ص 242-243.

(22)ل.شابيرو. مرجع مذكور. ص 219.

”تعالوا معنا، للقاء الحياة الجديدة التي نعمل لها [...] إلى الأمام نحو الحرية وجمال الوجود” (21).

يبقى تبرير إضافي للثورة، قدمه المؤلف المناوئ بشراسة للبلاشفة، ليونارد شابيرو، على قاعدة ذكرياته الشخصية، في حين كان لا يزال فتى غرا في بتروغراد، في نهاية عام 1920:

”كانت الحياة قاسية جداً، وكان مستوى التغذية يحاذي المجاعة [...] مع ذلك فإن ذكرياتي، المتأثرة بلا شك بالراشدين الذين كانوا حولي، هي ذكريات الحماس والإثارة، (هذه) الحياة الجديدة، حياة الرجاء، كانت تبشر بمستقبل عظيم، على الرغم من الحرمانات وفضاظة النظام، لم يكن الشعور بالابتهاج، الذي أثاره سقوط الملكية، في آذار/مارس 1918، قد مات بعد” (22).

ليس من كلام أفضل من هذا الكلام.

إن التاريخ قاض صارم لكنه عادل، ينبغي فقط منحه الوقت اللازم لأجاز عمله. في 1810، لا بل في 1815، لم يكن باقياً الكثير من التعاطف مع ثورة 1789 الفرنسية، ماعداً في بعض الأوساط الثورية الضيقة جداً. لكن في عام 1848، لكي لا نقول في عام 1889، كان الحكم بصدها قد تغير بعمق. ونحن على قناعة بأن الأمر سيكون مشابهاً، في ما يتعلق بالحكم على ثورة أكتوبر.

إحالات

17 The Times (1) تشرين الثاني/نوفمبر 1925.

(2) ك.فون.بوثر، مرجع مذکور، ص 102، 131، 132.

(3) ب.وليامز، مرجع مذکور، ص 80

(4) المرجع ذاته، ص 94.

(5) موريزيه، مرجع مذکور، ص 179.

(6) ن.ستون، Sunday Times، 5 كانون الثاني/يناير 1991.

(7) ف.ب.تومين Uroven Obrazovanniya Naseleniya SSE، موسكو، 1981.

في الكرملين، كان يتصل هاتفياً كل خمس دقائق ليعرف إذا كان هذا الموج الخطابى قد توقف عن التدفق، وهو ما كان ينتظره للعودة إلى الجلسة”.

كان الرجل مأخوذاً منذ البداية بتلك الأهداف السامية المتعلقة بحياة البشر ومستقبلهم، وسعادة الكائن الإنسانى، بعيداً عن أي قمع أو ظلم أو اضطهاد، وعن أي أدنى إساءة للكرامة، ولأجل ذلك، يقوم بنقد ذاتي حاد ومؤثر، ينضح بنوع من وخز الضمير، ملفتٍ جداً لدى مؤسس أول دولة عمالية في التاريخ، إزاء ما يشعربه من مسؤولية بخصوص حقوق القوميات، يقول:

”أنا مذهب جداً، على ما أظن، أمام عمال روسيا، لأنني لم أدخل بما يكفي من القوة والقسوة، في موضوع الحكم الذاتى (...)”.

أما الحزب الذي بناه فكان حزباً ديمقراطياً إلى حدود بعيدة، على عكس ما توحى به مقاطع في ما العمل؟ الذي كتبه عام 1902، والذي يشدد، ضمن ظروف القمع القيصرى، على المركزية، يوضح ماندل، في كل حال، أن نظريته التنظيمية اغتنت وتعمقت باتجاه تغليب الديمقراطية، بشكل حاسم، ابتداءً من تجربة 1905 الثورية، لا بل هو يرى حتى في الكراس المذكور مقاطع ذات معنى ”لوكسمبورغي-تروسكي”، كما الحال حين يرد فيه أنه ”ليس من معنى لتنظيم الثوريين المحترفين إلا في علاقة بالطبقة الثورية حقاً (...)”، وأن ”مبدأ الديمقراطية الواسعة يستتبع شرطين صريحين” هما ”العلنية الكاملة” و”الانتخاب لكل الوظائف”.

يقول ماندل إن الحزب البلشفي كان قد أصبح ما بين شباط/فبراير وتشرين الأول/أكتوبر 1917، حزبا جماهيريا يجمع الطليعة الفعلية للبروليتاريا الروسية: ”كان الحزب الجماهيري الأقل تبصرًا الذي حدث أن عرفه العالم، يكاد يضم حوالي 700 متفرغ من أصل أكثر من 250 ألفاً إلى 300 ألف عضو، وكان يشتغل فضلاً عن ذلك بصورة ديمقراطية جداً: كانت النقاشات والاختلافات في الرأي كثيرة، وكان يتم التعبير عنها، عموماً، بصورة علنية”.

ويدحض ماندل بشدة أيضاً التزوير القاضى بأن البلاشفة رموا من وراء ”انقلابهم” إلى خلق جنة على الأرض في روسيا، على الفور أو في مهلة قصيرة، أنهم ”وضعوا الطوبى في السلطنة”، بين كيف أن الغاية من استلام المجالس للسلطة لم تكن ذلك بل تحقيق أهداف ملموسة جداً، ولاسيما إيقاف الحرب حالاً، وتوزيع الأرض على الفلاحين، وضمان حق تقرير المصير للقوميات المضطهدة وإرساء الرقابة العمالية على الإنتاج، والحيلولة دون انتصار الثورة المضادة، وهي أمور وضعتها موضع التنفيذ في الحال، مظهرة مدى التطابق بين وعود البلاشفة وبرنامجهم من جهة، وممارستهم الفعلية، من جهة أخرى، تلك المهام للموسسة والمباشرة، لم تكن لتحبج التوجه الأصيل لديهم إلى البناء الاشتراكي، لكنهم كانوا يدركون تماماً أنه إذا أمكن الشروع في وضع أساسات ذلك البناء، فإن إجازته لا يمكن أن يتم إلا بعهد انتصار الثورة العالمية، ”ليس لدي أي وهم، يقول لينين، اعرف أننا دخلنا فقط في فترة الانتقال إلى الاشتراكية (...)، لم يخدمنا يوماً الأمل بإنهائها بدون عون البروليتاريا العالمية”.

"باختصار، يقول ماندل، كانت ثورة أكتوبر ذروة حركة جماهيرية هائلة قادها نحو انتزاعها السلطة حزب عمالي طبيعي مندمج بالجماهير بصورة وثيقة. حزب كان يسعى قبل كل شيء لأن يحقق مطالب السكان الباشرة الأكثر إلحاحاً، في حين يتطلع إلى أهداف اشتراكية عالمية وقومية أشد اتساعاً".

دور الإصلاحيين في إجهاض البناء الاشتراكي

هذا الرهان على "عون البروليتاريا العالمية"، لدى البلاشفة، حين حققوا ثورتهم الخاصة بهم، لم يكن وهمياً ولا من قبيل "الطوبى المثالية"، على حد تعبير يلتسين. حتى الوزير الأول البريطاني، آنذاك، لويد جورج، كتب في هذا الصدد أن "كل أوروبا مفعمة بروح الثورة. ثمة شعور عميق، ليس فقط بالاستياء بل بالسخط والتمرد ضد شروط ما قبل الحرب. كل النظام القائم، في وجوهه السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، توجه الاتهام إليه جماهير السكان على امتداد أوروبا بأسرها". لا بل إن سلسلة غير منقطعة من الثورات راحت تنفجر "انطلاقاً من أكتوبر 1918". "ثورات في فنلندا، في ألمانيا، في المجر وسلطة سوفيتية في بافيري، وأزمة ثورية في إيطاليا". كانت الثورة العالمية، يقول ماندل، حقيقة ملموسة في ذبك العامين".

بيد أن ما كان ينقص، لكي تصبح تلك الثورة أمراً واقعاً، ويتغير العالم جذرياً بفعل ذلك، إنما هو العامل الذاتي: القيادة الثورية لحركة الجماهير. تلك الحركة كانت تحت هيمنة الفكر الإصلاحية، ضحية للخيانة الفعلية من جانب الأحزاب الاشتراكية-الديمقراطية في أوروبا، التي رفضت قيادة الطبقات الكادحة على طريق التغيير الشامل، بحجج شتى، بينها الدفاع عن الديمقراطية (البرجوازية)، علماً أن البرجوازيات العالمية كانت مستعدة، في كل حين، لأن تدوس تلك الديمقراطية بالأقدام، إذا قضت مصالحها بذلك!

هكذا بدلا من استجابة الجماهير الكادحة، التي تحدث لويد جورج عن رفضها للنظام (الرأسمالي)، وتوجيهها الاتهام إليه، فضل الاصلاحيون الدخول في مساومات مع برجوازيات بلدانهم وإنقاذ الوضع القائم، في ذروة أزمته واهترائه، حتى لو تطلب ذلك أن يلعبوا -بحسب تعبير وزير داخلية جمهورية فايمار، الاشتراكي-الديمقراطي الألماني، غوستاف نوسكه- "دور كلب دموي" ضد الطبقة العاملة وطلبتها الثورية!

إن ماندل يبرز مسؤولية الأحزاب الاشتراكية الإصلاحية عن انحسار الموجة الثورية الهائلة التي اندفعت في أرجاء أوروبا المتقدمة صناعياً بعد الحرب العالمية الأولى. ليس فقط الحزب الاشتراكي-الديمقراطي الألماني، الذي عتد بخيانتته الطبقة الطريق أمام صعود النازية، وقيام الرايخ الثالث، وسقوط 50 مليون ضحية هي حصيلة الحرب العالمية الثانية، بل كذلك أحزاب الأمية الثانية الأخرى، وبوجه خاص الحزب الاشتراكي النمساوي الذي أوقف الثورة النمساوية، لقاء تسوية مع البرجوازية، تسوية لم تكن تتبع من موازين قوى غير مؤاتية موضوعياً. يقول ماندل: "إن استلام الاشتراكيين النمساويين السلطة كان بمقدوره أن يعدل الوضع في أوروبا بشكل أساسي لصالح الثورة، عبر ضمان التقاء جغرافي مع الجمهوريتين السوفيتيتين في بافيري والمجر، اللتين كانتا أقيمتا حديثاً على

لقد أكد الكثير من المؤرخين أن البلاشفة خسروا التحام الطبقة العاملة بهم لا بل دعمها بعد عقد صلح برست-ليتوفسك وشن الإرهاب الأحمر في عام 1918. حتى ناقد عطوف، كوليم ج. روزنبرغ، يؤكد ذلك (17). لكن تعاكس هذا التأكيد الدعوة النظامية لتعبئة عمال المصانع في الجيش الأحمر، بهدف الدفاع عن سلطة السوفييتات، ففي الواقع، لبت الغالبية الساحقة من الشغيلة هذه الدعوة (18). لا شك أنه كانت هناك تقلبات في موقف الطبقة العاملة حيال البلاشفة في 1918، 1919، 1920. لكن أياً يكن الوجه النقدي لدعم غالبية الشغيلة، فلقد ظلوا يحظون بهذا الدعم.

كان الجيش الأحمر مشبعاً، من جهة أخرى، بهذه الروح الطبقة البروليتارية. كانت تربية الجندي تضم بوجه خاص المقاطع التالية:

"ينبغي أن تكون بين رفاقك، قادتك إخوة لك أكثر خبرة وأكثر ثقافة. ينبغي أن تطيعهم في المعركة، في التدريب، في الثكنة، في العمل، وحالما تخرج من الثكنة، تكون حراً بشكل مطلق [...] إذا سئلت، كيف تقاتل؟ أجب: أقاتل بالبندقية، والحربة، والرشاش، وكذلك بكلمة الحقيقة التي أخاطب بها جنوداً أعداء هم عمال وفلاحون، كي يعرفوا أنني لست عدوهم في الحقيقة، بل أخ لهم" (19).

فلنذكر، بين شهادات كثيرة أخرى تؤكد وجود هذه الروح الطبقة، واقعة أوردها س.أ.سميث. فحين لزم في نهاية كانون الأول/ديسمبر 1917، الحد من الاستخدام في مصانع الذخيرة ومصانع بوتيلوف في بتروغراد، وضع العمال لوائح أولويات. لم يؤخذ بالحسبان أي انتساب حزبي، بما في ذلك إلى الحزب البلشفي (20).

الرجاء

لقد عبر عن المعنى التاريخي لثورة أكتوبر، بشكل مثير للإعجاب ماكسيم غوركي، الذي كان ناقداً صارماً لها مع ذلك:

"كل من يرى بشرف أن تطلع البشرية المتعذر كبتة إلى الحرية، والجمال، وحياء يوجهها العقل، ليس حلماً بلا جدوى، بل قوة حقيقية يمكنها، بذاتها، أن تخلق أشكال حياة جديدة -أنه بحد ذاته رافعة يمكن أن تحرك العالم-. كل إنسان شريف ينبغي أن يعترف بالدلالة العامة لنشاط هؤلاء الثوريين المنطقيين. ينبغي تصور الثورة كمسعى واسع لإعطاء شكل للأفكار الخلاقة وللأجوبة التي تخيلها مفكرو البشرية الأفاضل.

بين هذه الروح البروليتارية-الشعبية وطبيعة الثورة بالذات في الميدان المؤسسي. ثمة ترابط لا مجال لنكرانه.

فلنستشهد مرة أخرى بألفونس باكيه، الذي اعترف أياً يكن، بهذه الروح في ما تنطوي عليه من جوهر:

"إن الإسهام الأول، الذي لا نظير له، للثورة الروسية هو أنها خاضت، بجذرية تامة وبيد من حديد، المعركة ضد أنانية الرأسمالية، سواء في شكلها الخاص أو الدولاني. إن ميزة البلشفية هي أنها أتاحت حصول ذلك..." (...)

"إن انهيار أوروبا يتم تحت أعيننا الآن. لكن أساس إعادة بنائها بات قائماً. فلنحاول أن نفهم بصورة عميقة أفكار الثورة ولنستمد منها الأمل في المستقبل."

وهذه الخاتمة ذات الراهنية الأخاذة:

"ذات يوم، على سبيل المثال، سيكون في وسع شغيلة [المدن المحاذية لنهر الرين وهي] بال وستراسبورغ، ومانهايم، ومايانس، وروهرورت [ربض منجمي]، وإيريش وروتدام أن يشكّلوا مجلساً مشتركاً للحوض الريناني. ويمكنهم هكذا التحسيس بتأثيرهم في تحويل هذا المحور إلى طريق نهريّة أوروبية كبيرة، ما وراء حدود الدول وحق من هم فوق [...] ويمكن فكرة مجالس كهذه أن تخدم أيضاً، بطرق كثيرة، الهدف الأوروبي، أي بناء اقتصاد مشترك والسلام" (14).

ثمة هنا روح طبقية، بلا ادني شك، ولهذا السبب، يضعها في مقعد الاتهام المسكون بسلطة الملكية الخاصة، وسلطة الثروة، وهي تبقى، بالنسبة إلينا، مطابقة لمتطلبات العدل الاجتماعي، والمعطيات التاريخية، قابلة للدفاع عنها كلياً من كل النواحي، بدءاً بوجهة النظر الأخلاقية.

لقد لاحظ ألفونس غولد شميدت هذه الروح الطبقة في بتروغراد: "الانطباع الأول: مدينة بروليتارية، العامل يسود، العامل يسيطر في الشارع (15)." ويلاحظ ألفونس باكيه من جهته أن: "مجالس مؤلفة حصراً من بروليتاريين تحكم في المنشآت والأحياء المدنية، والقرى، والمقاطعات والأقاليم" (16).

لقد وزعت الحكومة البلشفية أسلحة على العمال في كل مدن البلاد عملياً، خلال الحرب الأهلية. أليس ذلك دليلاً على أن الأمر لم يكن يتعلق بحكومة عشيرية أو بدعة؟ بل بحكومة طبقة، مقتنعة بالتمتع بثقة غالبية هذه الطبقة؟

جانبي النمسا. إن الاشتراكيين النمساويين إذ رفضوا استلام السلطة قطعوا سلسلة الثورة الاشتراكية، ولو تصرفوا بشكل آخر لكانت عززت كل من الجمهوريات البروليتارية الثلاث، الواحدة قوة الأخرى، متسببة باندفاع ثوري كان يمكن أن ينشر في أوروبا بأسرها".

إن سلوك الإصلاحيين هذا، الذي حال دون انتصار الاشتراكية على الصعيد العالمي، في هذا القرن بالذات، هو الذي "عزل روسيا عن المجتمع الدولي فترة طويلة"، وساهم إلى حد بعيد في نجاح ثورة مضادة وصعود البيروقراطية الستالينية في الاتحاد السوفيتي؟ متسببا بقطع المسار الثوري الذي أطلقتته ثورة أكتوبر، ومنع التحول الاشتراكي الحقيقي، الذي لم يكن كفيلاً وحسب، في حال حدوثه، بإخراج الشعوب السوفيتية نهائياً من البؤس، بل أيضاً بضمان رفاهها وسعادتها، على عكس المزاعم الكاذبة التي أوردها الرئيس الروسي الحالي، في الذكرى الثمانين للثورة الاشتراكية الظاهرة الأولى في التاريخ.

وبالتالي، فهذه الثورة لم تكن "خطأً تاريخياً عظيماً"، على الرغم من الأخطاء العديدة التي ارتكبتها البلاشفة، وتطرق إليها ماندل في هذا الكتاب الصغير، إن الخطأ التاريخي الحقيقي الذي يعادل الجريمة بحق البشرية جمعاء، إنما هو ذلك الذي ارتكبه الاصلاحيون بالتحديد، بانخراطهم "بنشاط في معسكر الثورة المضادة"، وامتناعهم عن تقديم جُدة حقيقية لتلك الثورة، التي يقول عنها حتى مؤرخ نقدي معادٍ هو ألفونس باكيه، إن إسهامها الأول، الذي لا نظير له، هو إنها "خاضت بجذرية تامة وبيد من حديد المعركة ضد أنانية الرأسمالية". كما يقول عنها الروائي الروسي التقدمي، ماكسيم غوركي:

"كل من يرى بشرف أن تطلع البشرية المتعذر كبتة إلى الحرية والجمال، وحياء يوجهها العقل، ليس حلماً عديم الجدوى بل قوة حقيقية يمكنها بذاتها أن تخلق أشكال حياة جديدة، كل إنسان شريف ينبغي أن يعترف بالدلالة العامة لنشاط هؤلاء الثوريين المنطقيين. ينبغي تصور الثورة كمسعى واسع لإعطاء شكل للأفكار الخلاقة والأجوبة التي تخيلها مفكرو البشرية الأفاضل (...)"

كميل داغر

إحالات

(*) انظر مارسيل ليبمان، اللينينية في ظل لينين، الجزء الثاني، دار الحصاد، دمشق، 1989، ص 304

أطوار ثورة عام 1917

بقلم: فرانسوا فركامن

في شباط/فبراير 1917، وفيما الحرب في عجزها، أطاحت نظام القيصر الأوتوقراطي الروسي مظاهرات جماهيرية. وبعد ذلك بثمانية أشهر، في تشرين الأول/أكتوبر، استولت الطبقة العاملة، مستندة إلى تعبئة شعبية في البلد بأكمله، على السلطة السياسية، وبدأت بناء مجتمع جديد، اشتراكي. كان القرن العشرين يهتز بقوة.

وكما كان قد توقع البعض، وخشي البعض الآخر، أجمت حرب 1914 العالمية ثورة.

أزمة النظام

إن ثورة 1917 الروسية هي لحظة الذروة في أزمة مستمرة كانت تهز المجتمع الروسي منذ أوساط القرن التاسع عشر. إن ذلك المجتمع، وكان قوة عسكرية كبرى في أوروبا (لكنها تنزل بكل ثقلها أيضا في آسيا)، كان مجتمعا مثنيا في وضع التخلف، في حين كان ينتصر نمط الإنتاج الرأسمالي في الغرب. هذا وقد حولت قمع الدولة القيصرية أن تحقق إصلاحات يمكن اختصارها بما يلي: الإصلاح الزراعي، ديمقراطية الجهاز الإداري، تحديث التعليم، سن قوانين اجتماعية، الاعتراف بحق الشغيلة في تنظيم أنفسهم، التصنيع "من فوق"، إعطاء استقلال قافي لقوميات الإمبراطورية، الخ. لكن كل محاولة إصلاح كانت جزئية وخجولا، ليلها دائما إصلاح مضاد على درجة من الفظاظة تناسب مع الحاجة لاستعادة التحكم بالقوى الاجتماعية والسياسية التي "حررت" مؤقتا.

"قليلًا جدا ومتأخرا جدا": انفجرت الأزمة في كليتها، للمرة الأولى في عام 1905. ولقد أخفقت الثورة المذكورة، لكن الأمر لم يكن سوى إرجاء للحظة الحسم. لقد شكل انفجار الحرب العالمية عام 1914 وقفة عنيفة لموجة جديدة من الإضرابات الثورية. وقد أخذ التاريخ بثأره بعد ثلاث سنوات: بات النزاع العالمي حقا هائلا لكل الشرور والآلام، والحرمانات والتطلعات المتراكمة على مدى السنين.

وراحت الأزمات تعلن عن نفسها. أزمة اقتصادية: لم يعد النظام يتوصل لتأمين الغذاء للسكان. أزمة سياسية-مؤسسية: الدولة المستبدة تفقد كل شرعة. أزمة زراعية: تعطش الفلاحين إلى الأرض بالضيق العام للحياة اليومية. أزمة القوميات: كان اختناقها يزداد في ظل روسنة قسرية.

ثورة شباط/فبراير 1917

لقد فجر البؤس غير المحتمل في شتاء 1916-1917 ثورة الجماهير في شباط/فبراير. كانت النساء -عاملات ومدبرات منازل- هن من أشعل الحريق بمناسبة "يومهن

حتى فون بومر مضطر للاعتراف بأن الثورة، إذ حظرت أي بيع للكحول، جعلت السكر يختفي عمليا من المدن الكبرى. لم ير أي سكير في موسكو أو بتروغراد (8).

حين نعرف كم ضرب وباء الإدمان روسيا قبل أكتوبر-وبعد إعادة احتكار الدولة لبيع الكحول، ففي ظل ستالين- وحين نعرف أضراره في روسيا الحالية، ندرك بسهولة أهمية هذه المسألة.

بالمعنى نفسه، يشعر الصحفي ألفونس غولد شميدت بالأمن المطلق في بتروغراد وموسكو. الشوارع هادئة، وفي عز المجاعة، تمر شاحنات الطحين، ولا يهاجمها أحد. لا نهب لمخازن المون (9).

وقد عبرت أنية الثورة عن نفسها أيضا في تعددية ثقافية أخلاقية سخية، ومؤثرة وشبه ساذجة، إن الكاتب الألماني ألفونس باكيه ناقد تمام للثورة لا يستطيع مع ذلك الامتناع عن التعاطف معها. (10) وهو يروي أنه في الذكرى الأولى للثورة، دوتت على الجدران البيضاء لثكنة الأكاديمية العسكرية القديمة لائحة طويلة بأسماء "المقاتلين لأجل الحرية". وكانت اللائحة تضم أسماء فيكتور هوغو، أميل زولا، إيبسن، أميل فرهارن، نكراسوف، سالتيكوف، ميكالوفسكي، بايرون، شوبان، كولتروف، قسطنطين، مونيه، موسورغسكي، بوشكين، رمسكي كورساكوف، سكريابين، بيبيل، لاسال، جان جوريس، بليخانوف، سبارتاكوس، غراكوس بابوف، غارibaldi، روبسبير، دانتون، جان جاك روسو، روبرت أوون، هرزن، باكونين، فولتير، بيستيل، وآخرين كثيرين أيضا (11).

وفي 1918-1919 جرى إصدار مؤلفات لكل من بوشكين، وليرمونتوف وغوغول، وتولستوي، وتورغنيف، ودوستويفسكي، وغونتشاروف، وغريغوريفش، وأوستروفسكي، وريليف، وزولا، وأناطول فرانس، وميريميه، ووالتر سكوت، ورومان رولان، وأولار، ولوي بلان، وجان جوريس، وبيبل، وبليخانوف، وكاوتسكي، (والأخيران خصمان عنيدان لثورة أكتوبر)، وذلك بإصدارات تتراوح بين 25 ألف نسخة ومئة ألف (12).

في الوقت نفسه، حفزت الثورة مشاركة جماهير هائلة في الحياة الثقافية. ففي أول أيار/مايو 1920، شارك عشرون ألف شخص في بتروغراد في المشهد المسمى "تحرير العمل"، الذي يروي المعركة التاريخية لأجل التحرر، من ترمد عبيد العصر القديم حتى الثورة الروسية. وقد جرى تصوير فيلم "المدرعة بومكين" لسرج إيزنشتاين بمشاركة آلاف المواطنين والمواطنات في أوديسا (13).

الروح الطبقة

في الواقع. لقد أدهش العالم بأسره ازدهار المسرح والسينما في الاتحاد السوفياتي. والرسم والملصقات والنحت الطبيعي، وتنظيم المدن والهندسة المعمارية، وعلم النفس، وطب الأمراض النفسية، وتحليل الظرف الاقتصادي وعلم التاريخ، ناهيك عن الأدب. هذا الازدهار تجاوز نظيره في "الأعوام الذهبية" المشهورة لألمانيا فايمار، التي كانت قاعدة الانطلاق فيها والثروة المادة أوسع بما لا يقاس.

ازدهار التربية والتعليم

بذلت الثورة أيضاً جهداً هائلاً نحو الأمية وتوسيع التعليم. فموازنة التعليم العام، التي كانت بلغت 195 مليون روبل عام 1916 والتي زادت ثورتها شباط/فبراير إلى 940 مليوناً، ارتفعت إلى 2.9 مليار روبل عام 1918 على يد البلاشفة. ثم إلى عشرة مليارات في عام 1919. وارتفع عدد المدارس الابتدائية من 38387 عام 1917 إلى 52274 عام 1918، إلى 62238 عام 1919. والتعليم ما قبل المدرسي، الذي كان معدوماً عملياً في ظل القيصرية، بات يشمل مئتي ألف طفل عام 1921 و561 ألفاً عام 1921 (5).

إن البروفيسور نورمان ستون، الذي لا يخشى الظهور بمظهر مثير للسخرية، لا يتردد في التأكيد أن القيصرية كانت، قبل عام 1917، على طريق تحديث ناجح لروسيا، يورد في هذا الصدد "ازدهارها العلمي والثقافي" (6).

والحال أن لم يكن في روسيا القيصرية، كحد أقصى، إلا عدة آلاف من رجال العلم. وكانت الغالبية الساحقة من السكان أمية. وبفضل العمل الذي بدأته ثورة أكتوبر، كان هناك في بداية الثمانينيات، أكثر من مليوني رجل علم، 125 مليون حائز الشهادة الثانوية، 14.8 مليون مواطن (ومواطنة) مع شهادات ما بعد التعليم الثانوي. وأكثر من 80% من ذوي الأجر حائزون شهادات تعليم ثانوي (7).

أما بخصوص القفزة الصناعية إلى الأمام، آتياً يكن ثمنها، فكشف الحساب ليس أقل وضوحاً.

ثورة أنسيّة

هاكم مدى صحة ما يقال عن "غياب الأجازات" بخصوص ثورة أكتوبر!

لكن لنغادر الميدان المادي، للالتفات إلى الحقل الأخلاقي والروحي، الذي امتدحه كثيراً خصوم الثورة، لي من دون نفاق.

العالمي". فمن معامل النسيج امتد الإضراب بسرعة وعفوية ليشمل مجمل بروليتاريا بتروغراد، العاصمة في تلك الأيام. ولم تمر أيام قليلة حتى كان الإضراب الجماهيري يتحول إلى انتفاضة، مع انتقال الحامية إلى صفوف الثورة. سرعان ما انضفت إلى الهتاف "نريد الخبز" هتافات تطالب بـ"الصلح الفوري" وبـ"سقوط القيصر". وفي زحمة الثورة، أجز الشغيلة مآثر في التنظيم الذات، فلقد قاموا بتكوين سوفيات (مجالس) في المصانع، والأحياء وعلى مستوى المدينة، كما شكلوا حراً أحمر (ميليشيا ثورية)، حتى في الجبهة انتخب الجنود لجانهم... ضباطهم! وفي ما بعد، خلال صيف 1917، بدأ الفلاحون مسيرتهم، هم أيضاً، ساحبين من تحت النظام أي قاعدة اجتماعية.

ازدواجية السلطات

ما بين شباط/فبراير ونهاية تشرين الأول/أكتوبر 1917، عاشت روسيا وضعا ثوريا خاصا تمثل بازدواجية السلطة. إن الطبقة العاملة، المملوكة تصميمها كافيا لطرد النظام القيصري من مواقعه في شباط/فبراير، لم تكن جاهزة على الفور لانتزاع "كل" السلطة. لكنها غطت المصانع والمدن بشبكة كثيفة من المجالس سرعان ما امتدت إلى الجيش، وفي الأخير إلى الريف. إن تلك السوفيات، المتزايد عددها باستمرار والأفضل فأفضل مركزاً، وكانت سلطة مضادة حقيقية، باتت تهدد في كل لحظة بإطاحة البرجوازية.

اثنان من تلك البنى السوفياتية كانتا تلعبان دوراً حاسماً: تلك المنتخبة على أساس مكاني، والتي تمارس في الوقت نفسه سلطة سياسية "في المجتمع"، وتلك التي تجسد بوصفها مجالس المصانع، الدينامية الهائلة التي تفعل فعلها وسط الطبقة العاملة.

هذه المجالس، المنبثقة من حاجات الجماهير الملحة، كانت تعكس أيضاً حالة وعيها وأرائها المسبقة السياسية. لكي تنطرح مهمة الاستيلاء على السلطة بوضوح، ينبغي أن يدفع بها إلى المقدمة حزب ثوري، أي أن يجعل منها هدفاً أولياً. إن المنظمة القادرة على التصرف بهذه الطريقة إنما هي الحزب البلشفي. ولكن هذا الأخير بقي في وضع الأقلية، بين الشغيلة وفي السوفيات حتى أيلول/سبتمبر 1917. هكذا، إن تاريخ ازدواجية السلطة هو أيضاً تاريخ الصراع بين مختلف الأحزاب السياسية في الحركة العمالية والشعبية لقطع العقدة "الغوردية" (*) للسيروة الثورية: مع أخذ المجالس للسلطة أو ضد ذلك.

تطور موازين القوى: شباط/فبراير - حزيران/يونيو

في مرحلة أولى، كانت مختلف التيارات الإصلاحية (المناشفة، الاشتراكيون-الثوريون، العماليون) تسيطر على بنى التنظيم الذاتي. كانت تقود السوفيات، وسرعان ما

الفصل الثامن، بمثابة خاتمة

لقد هاجمت الرجعية الروية والعالمية ثورة أكتوبر بأقصى العنف. خلال السنوات التي تلت النصر البلشفي، مؤكدة أن هذا الأخير لم تكن له غير آثار تدميرية صرفة.

غنى ثقافي عظيم

كانت الصحف الفرنسية، ومن بينها Le Temps بوجه خاص، تندد، في أعمدة بكاملها، بـ"البربرية الآسيوية" التي خنقت، يجب زعمها، كل حياة فنية وأدبية، وعلمية في روسيا السوفييتات. وفي تموز/يوليو 1920، ألغت الأكاديمية الفرنسية للعلوم تقريراً كان وجهه إليها السيد فيكتور هنري، المكلف بمهمة في روسيا، بخصوص النشاط العلمي في هذا البلد. وفي عام 1925، أيضاً، نشرت The Times الصحيفة اليومية اللندنية، مذكرة للقيادة البحرية البريطانية تؤكد فيها أن الحكومة السوفييتية لم تقدم لروسيا غير الدم والبؤس والمجاعة (1).

ويلخص النبيل الريفي البروسي كارل فون بومر الحجة المركزية لحملة الاغتيال هذه حين يكتب:

"لا تظهر أي قوة بناءة."

"لا تظهر في أي من الأمكنة قوى خلاقية". إن الحكومة "لا تستمر قائمة إلا بوسائل إجرامية، من دون التمكن من تحقيق أي إنجاز" (2).

في الوقت نفسه الذي كتب فيه فون بومر هذه السطور، لاحظ بيريل وليامز بصورة أكثر شهامة أن:

"الجميع بين اختيارات على الصعيد الفني ونقاشات فكرية مكثفة بخصوص المسائل الثقافية أدى إلى ولادة مرحلة من النشاط الفني المكثف والاحتلام الطبوابة في سنوات الثورة والحرب الأهلية" (3).

ولقد أشار، على الصعيد العملي، إلى أنه بات هناك في نهاية عام 1918 ثلاثة أضعاف ما كان في روسيا من متاحف قبل الثورة (4).

ستنضم (منذ أيار/مايو 1917) على الحكومة المؤقتة (البرجوازية). كانت تحاول عرقلة الاندفاع الشعبي بسياسة تعاون طبقي.

إن تطور الوضع داخل المجالس خلال فترة ازدواجية السلطة بات من الآن وصاعداً وثيق الارتباط بمسار صراع طبقي يزداد تفاقماً.

في أوائل نيسان/أبريل 1917، جمع الكونفرانس الأول للسوفييتات -الذي جرى وصفه بكونه لعموم روسيا، بينما كان في الواقع يتعلق على وجه الحصر تقريباً ببطرسبورغ- 480 مندوباً عن العاصمة، و138 عن المجالس المحلية و46 عن الجيش. وقد قدم دعمه للحكومة البرجوازية الليبرالية برئاسة الأمير لفوف (في الوقت نفسه الذي اشترط فيه ممارسة رقابة عليها!) وساند مواصلة الجهد العسكري، في حين دعا إلى توسيع حركة المجالس لتشمل كل البلد.

في نهاية نيسان/أبريل حاولت الحكومة أن تطلق مجدداً سياستها الحربية، متسببة بمظاهرات كبرى وحركة إضرابات حازمة لأجل المطالب الاقتصادية الفورية. باتت عقارب الساعة تميل إلى اليسار. ففي المؤتمر (الأول) للمجالس المصانع في بتروغراد، حاز البلاشفة الأغلبية بفضل دعمهم لشعار "اليوم من 8 ساعات عمل من دون شروط" و"الرقابة العمالية" (421 صوتاً ضد 325). لكن على سبيل المفارقة، عبر هذا الانعطاف اليساري في قمة الدولة وعلى مستوى البنى القومية للسوفييتات، عبر عن نفسه بادئ ذي بدء، على حساب الليبراليين، بتعزيز مواقع الإصلاحيين (مناشفة، اشتراكيين-ثوريين) وبالتالي دخولهم في حكومة ائتلاف "بين الطبقات"، باتوا يقودونها مذاك.

في بداية حزيران/يونيو، اجتمع أول مؤتمر حقيقي للنواب العمال والجنود. كان يمثل مندوبيه الـ 1090 المنتخبين 5 بينهم 822، منتدبون وفقاً للأصول ويحوزون حق التصويت-. حوالي 20 مليوناً من الأشخاص. كان منتخباً بالاقتراع العام، وبشكل بذلك الهيئة الأكثر تمثيلاً وديمقراطية التي سبق أن عرفتتها الدولة الروسية. وعلى قاعدة تعددية سياسية كاملة، ناقش على مدى ثلاثة أسابيع (3-30 حزيران/يونيو)، كل مسائل السكان الحيوية. كان يضم 283 عضواً اشتراكياً-ثورياً، و248 منشفياً، و105 بلاشفة، و73 غير حزبيين، فيما ينتمي الباقيون إلى شتى المجموعات الاشتراكية الأقلوية. أما لجنته التنفيذية، التي كانت تبدو "كحكومة مضادة" حقيقية، فضمت 104 مناشفة، ومئة اشتراكي-ثوري، و35 بلشفياً، و18 اشتراكياً من اتجاهات أخرى. وقد أعاد تجمعه بعد فترة قصيرة مع اللجنة التنفيذية لمؤتمر الفلاحين لعموم روسيا، الذي انعقد بشكل منفصل، وحيث كان يمتلك الاشتراكيون-الثوريون الاحتكار المطلق. إن حكومة الائتلاف، التي كانت شعبية جداً في البداية، فقدت حظوتها سريعاً، إن الأسباب تنتج الآثار نفسها، لكن متبلةً بوعي طبقي في حالة استيقاظ: مرة أخرى تتدخل الجماهير الشعبية مباشرة في الحلبة السياسية، مع طرائقها النضالية

ساكس لإقالة حكومة يقودها اشتراكيون-ديمقراطيون يساريون وتمتع بدعم شعبي واسع (مرجع مذکور، ص 773-775).

بعد قمع هذا النظام الثورة الألمانية، تكتسّف أنه عاجز عن التصدي للأزمة الاقتصادية والاجتماعية، دعا في عام 1933 هتلر إلى السلطة، فأقام الديكتاتورية النازية على مراحل.

الخاصة بها. إن لجنة المجالس التنفيذية، التي أحست بالضغط القادم من الأسفل، وكانت بقيادة إصلاحية، سمحت بتظاهرة، وهي عملية حقيقية لاسترجاع (إلى مواقع محافظة) سياسي. إلا أنه في 18 حزيران/يونيو، في بتروغراد، كانت الشعارات البلشفية -وقبل كل شيء شعار "كل السلطات للسوفييتات" (التي كانت لا تزال بقيادة إصلاحية)- هي التي أحرزت الغلبة، لا بل غلبة ساحقة.

الثورة والثورة المضادة: تموز/يوليو-آب/أغسطس

لقد تم امتحان موازين القوى الجديدة خلال "أيام تموز/يوليو".

لقد حصل الاستعداد للقفز حين تمت مظاهرة 18 حزيران/يونيو، فسرت بروليتاريا العاصمة هذا النصر الأول على انه بداية الهجوم النهائي. وهكذا، متجاوزة حتى الحزب البلشفي، أخطأت هذه الطليعة الجماهيرية تقديرها للوضع. لقد تقدمت كثيرا، وبالتالي، وفي بداية تموز/يوليو، رجعت عقارب الساعة، فجأةً وبعيدا جدا، باتجاه اليمين. وأرادت البرجوازية الاستفادة من ذلك لخنق الحريق الثوري. أما رجل الوضع فكان يدعى كيرننسكي (1).

بعد أن صار كيرننسكي وزيرا أول، ضرب الحزب البلشفي والمنظمات الثورية الأخرى بقساوة. لقد حاول استعادة تماسك الجيش، وأعاد عقوبة الإعدام، وحل الفيالق المتمردة، وعين الجنرال كورنيلوف رئيسا للأركان. في الوقت نفسه الذي استند فيه إلى "الشرعية" وإلى المؤسسات العليا للمجالس العمالية، حاول أن يسحق ديناميتها الهدامة! ولقد تعاونت اللجنة التنفيذية (الإصلاحية) للمجالس تعاوننا نشطا مع هذه السياسة، مساهمة هكذا في إفراغ السوفييتات من مضمونها الثوري. وقد فقدت هذه الأخيرة حظوتها في نظر الطليعة العمالية.

شن كيرننسكي هكذا هجوم معمما ضد المكاسب التي كانت الجماهير قد فرضتها منذ شباط/فبراير. فضلا عن ذلك، أجل إلى تاريخ غير معروف تحقيق المطالب الشعبية، المعترف بها دائما و... المرجأة باستمرار. امحت ازدواجية السلطات من دون أن تزول مع ذلك بالكامل. بات الحزب البلشفي يعاني من صعوبات خطيرة، لكنه احتفظ بوضعه كغالبية في صفوف الطبقة العاملة (كما تبين ذلك الانتخابات البلدية التي كسبها في أواخر آب/أغسطس 1917).

بات يعتقد البعض، في مواقع عليا، أن ساعة الثورة المضادة قد أُرّفت: الانقلاب العسكري. لقد أزاح كورنيلوف كيرننسكي من السلطة وجربّ حظه في نهاية آب/أغسطس 1917 (يتبادر إلى الذهن تلقائيا ليندي وبينوشيت في أيلول/سبتمبر 1973 في الشيلي، أو إيبيرت-نوسكه وكاب في ألمانيا 1920). لكن في ثلاثة أيام، جرى إنزال الهزيمة "بجيشه" الذي هاجم العاصمة، استلمت سوفييتات بتروغراد قيادة المقاومة، عادت هكذا لتكون المركز السطحي للسلطة العمالية المضادة.

منذ بداية أيلول/سبتمبر، ترجّح رفاص الساعة باتجاه اليسار. بالقدر نفسه لترجحه في بداية تموز/يوليو باتجاه اليمين.

بات الحزب البلشفي يحوز الأكثرية داخل المجالس. بدءاً من بتروغراد ووصولاً إلى موسكو. وفي داخل الحزب، وضع لينين، الذي كان لا يزال متخفياً في فنلندا، الاستيلاء على السلطة والانتفاضة على جدول الأعمال. وطرح السؤال: متى؟ وكيف؟

من نيسان/أبريل إلى أيلول/سبتمبر، تعلم الحزب أن يناضل لأجل الأكثرية داخل المجالس بطريقة الديمقراطية العمالية.

من الآن وصاعداً، سوف تصبح وسائل هذه الديمقراطية هي جهاز الدولة الجديد عن طريق المبادرة الثورية.

إزاء هذا الانعطاف، كانت قيادة الحزب البلشفي تجتاز أزمة داخلية خطيرة قبل أن يفرض خط واضح نفسه. كان تيار "يميني"، حائز الغالبية بادئ ذي بدء داخل اللجنة المركزية، بقيادة زينوفييف وكامينيف، يتردد، ويدعو لإجراء الاستحقاق ويريد العدول عنه، وما بين لينين وتروتسكي، كلامهما نصير للتحضير المباشر للانتفاضة، جدال حاد أحياناً حول التكتيك المفترض اعتماده. وقد تغلب يسار الحزب في الأخير داخل اللجنة المركزية، المجتمع في العاشر من تشرين الأول/أكتوبر.

جرت دعوة المؤتمر الوطني لمجالس العمال والفلاحين والجنود للانعقاد في نهاية الشهر. في الوقت عينه، ردت اللجنة العسكرية الثورية، جهاز سوفيفيت بتروغراد، وكان على رأسها تروتسكي، ردت على استفزاز من جانب قائد المنطقة العسكرية، بولكوفنيوكوف، الذي كان يريد تفكيك حامية المدينة، المنحازة كلياً إلى جانب الثورة. هكذا بدأت الانتفاضة بتدبير من تدابير الدفاع الذاتي. لم تلزم غر ساعات قليلة لتفكيك جهاز القمع البرجوازي في بتروغراد، وباتت السلطة السياسية في متناول اليد. وكان على المؤتمر الوطني للمجالس أن يتخذ القرار النهائي. كان تركيبه السياسي قد أصبح مختلفاً تماماً عن تركيبه في شهر حزيران/يونيو 1917. فمن أصل 650 مندوباً، باتت الكتلة الإصلاحية (يمين المناشفة والاشتراكيون-الثوريون) تسيطر على أقل من مئة، فيما بات المناشفة يتمتعون بغالبية مطلقة قوامها 390 مندوباً. وقد انضم إليهم يسار المناشفة والاشتراكيون-الثوريون اليساريون. وهو الأمر الذي

يتهمه به ال(USPD) حين واجهه المؤتمر الأول لمجالس العمال والجنود. قال إنه ليس هناك غير مسألة إعادة القوات من الجبهة، وإن هذه القوات ستجتاز برلين. وفي الواقع، لقد أدخل إلى برلين قوات عشر فرق بقيادة الجنرال لوكي.

(16) غوتاف نوسكه، Von Kiel bis Kapp، برلين 1920.

(17) استشهد أوردته برويه، مرجع مذكور ص 273. كان السبارتاكيون حركة ثورية ألمانية.

(18) بالنسبة للقراء الذين تلقوا تربية كاثوليكية، من المفترض أن أحكام البابا لا تخطئ، وهذا بليغ الدلالة على الطابع الديمقراطي لكنيسة الكاثوليكية المسيحية جداً.

(19) ماركس وإجلس، "إلى أبيل، ولينينخت، وبراك، وآخرين، لايبزغ" Correspondance، باريس/موسكو، 1981، ص 323-324.

(20) إنها إحدى حجج لينين في مساجلته ضد كاوتسكي: "الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي"، المؤلفات الكاملة، الجزء 28، نص كاوتسكي، "ديكتاتورية البروليتاريا" وارد مع نص لينين في إصدار 18/10، باريس، 1972. لا يشير كاوتسكي في هذا النص، في القسم الوارد عن روسيا إلى أخطار الثورة المضادة إطلاقاً.

(21) حول دور "النخب" الألمانية، التي تركتها الاشتراكية-الديمقراطية في مكانها، في صعود النازية، انظر بوجه خاص: ارثر روزنبرغ، Entsehung und Gechichte Derweimarer Republik، إيفيلين اندرسن، Hammer oder Amboss.

أقيمت جمهورية فايمار في ألمانيا، في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1918، بعد تنازل غليوم الثاني عن العرش بمشاركة من العديدين في الاشتراكية-الديمقراطية.

أرسلت حكومة يشارك فيها الاشتراكيون-الديمقراطيون قوات في

(7) ج.ريس، International Socialism، العدد 54، مرجع مذکور.

(8) س.فاربر، Before Stalinism، بوليتي برس، 1990، ص 159-162.

(9) جرى تقديم القرار "الديمقراطية الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا" بادئ ذي بدء، في المؤتمر العالمي الحادي عشر للأمية الرابعة، عام 1979. وقد جرى تبنيه، في المرة الأولى، بتصويت استهلاكي، ثم أعيد نقاشه، واشتغاله، ثم تم تبنيه نهائياً في المؤتمر العالمي الثاني عشر في كانون الثاني/يناير 1985. أنظر بخصوص هذا النص، الأمية الرابعة، العدد الخاص 18/17، أيلول/سبتمبر 1985.

The Times (10)، 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1991، "الياقة البيضاء" مستخدم، مقابل "الياقة الزرقاء" الذي هو عامل منتج.

The Sunday Times Magazine (11)، 1/12/1991.

(12) مرجع مذکور، ص 298.

(****) الحاكم الروماني في فلسطين الذي غسل يديه من دم المسيح، لكنه لم يحل دون صلبه على أيدي رجال الدين اليهود (المعرب).

(13) نشر بيير برويه (مرجع مذکور) بيليوغرافيا واسعة جداً عن الثورة الألمانية 1918-1919. ولن نشير هنا إلا إلى ذكريات ريتشارد مولر، قائد الثوريين من تيار o bleute في برلين، ومذكرات نوسكه، وفيليب شايدمن، وسيفرينغ، والجنرال غرونر، وكتب بونوا-ميشين، وبيتر فون اورتن، وبول فرولش، وبول ليفي، وفرانز بوركنو (أنظر العناوين في البيليوغرافيا).

(14) بيير برويه (1917-1923) Révolution en, Allemagne، باريس 1917، ص 173.

(15) بخصوص المناورات والأكاذيب بمواجهة السكان، أنكر إبيرت بوقاحة أن يكون يريد إدخال قوات من الجيش إلى برلين (وهو ما كان

دفع بالإصلاحيين، وقد باتوا أقلية، إلى الخروج من المؤتمر، مائلين هكذا إلى صفوف الثورة المضادة.

وقد جرى انتخاب لجنة تنفيذية جديدة للمجالس -شكلت مركزاً تشريعياً حقيقياً للسلطة السوفيتية الجديدة- على قاعدة تعددية: 67 بلشفيًا، و29 اشتراكا-ثوريا يسارياً، و20 مقعداً لمجموعات ثورية مختلفة. وانتخبت هذه اللجنة التنفيذية بدورها الحكومة الأولى للدولة العمالية الجديدة. أعلن لينين: "إننا نبدأ ببناء النظام الاشتراكي الجديد."

كانت تلك بداية للثورة فرحةً وغير مؤلمة، لكنها ستتم بالامتحانات الرهيبة للحرب الأهلية، في السنوات 1918-1920، قبل أن تتوطد دعائمها...

الأحزاب والثورة

إن التنظيم الذاتي الديمقراطي للجماهير الشعبية هو وجه أساسي ونموذجي للثورة الروسية لكنه لا يضبط بذاته مسألة السياسة التي ستعتمدها بالفعل هذه السلطة المضادة.

يشمل التنظيم الذاتي مجموعة من الأحزاب مع برامجها، وتكتيكاتها ونشاطاتها. الخ . وفي الثورة الروسية، فإن الديالكتيك بين الأحزاب والمجالس الإقليمية هو الذي كان حاسماً (بما أن الحركة النقابية يشوب نموها ضعف شديد، وحركة اللجان المصنعية لا تزال تابعة، على الرغم من أهميتها).

لقد تشكلت الأحزاب السياسة في وقت متأخر جداً ووفقاً لكيفيات خاصة للغاية (وهذا ما يفسره التكوين الاجتماعي الروسي في تلك الفترة: دولة استبدادية، وأبوية وتوتاليتارية في آن معاً تسحق "المجتمع المدني" أو تخنقه أو تمتصه).

الكاديت

في عام 1917، وبجانب المجموعات الملكية المختلفة التي أصبحت هامشية، شكل حزب الكاديت (الدستوريون-الديمقراطيون) حزب الطبقات المسيطرة الرئيسي، هو الذي شكل أول حكومة مؤقتة منبثقة من ثورة شباط/فبراير 1917. وقد كان ميليوكوف، الأستاذ، والمؤرخ و"الأيديولوجي"، هو وغوتشيف، قيادتهم الرئيسي.

العماليون

كان كيرنسكي يقود. في عام 1917. الاشتراكيين الشعبيين. أو الترودفيك (العماليين). إن هذا الحزب. الذي بات حزبا ضئيل العدد. كان قد عرف أيام مجده في البرلمانات الزائفة لأعوام 1906-1914. وكان يجسد فيها الجمهور الفلاحي. الذي استيقظ على الحياة السياسية بعد عام 1905. كان هذا الحزب يجمع شخصيات سياسية. تستند إلى تطلعات البرجوازية المحافظة. في المناطق والأرياف. وإلى مشاعر القلق لديها. وبات كيرنسكي. هو ذاته. موضع ثقة البرجوازية الكبرى.

أحزاب الأهمية الثانية

كانت ثلاثة أحزاب. منتسبة جميعا إلى الأهمية الثانية. تتنازع التحاق الجماهير العمالية والفلاحة بها: المناشفة. والبلاشفة والاشتراكيون-الثوريون. وكانت كلها تنسب نفسها إلى الاشتراكية. لا بل الماركسية. وإلى الثورة. وباستثناء أقلية هامشية ضمنها. كانت قد تبنت جميعها موقفا معاديا للحرب الامبريالية عام 1914. كانت سيرورة التوضيح السياسي صعبة إذا. وهي ستتم في أتون التجربة بالذات. خلال الأشهر الثمانية لاذواجية السلطة. إن أحداث صيف 1914 حاسمة في هذا المجال. ففي ذلك الصيف حدثت الانشقاقات إلى يمين ويسار لدى الاشتراكيين-الثوريين والمناشفة. وتم التوحيد الثوري داخل الحزب البلشفي. وهو ما لم يكن يستبعد الإبقاء على بعض البلبلة السياسية والتنظيمية في القاعدة وفي المقاطعات. داخل كل من تلك الأحزاب. لكن أيضا في ما بينها.

الحزب الاشتراكي-الثوري

استند هذا الحزب. المعاد تكوينه عام 1902. إلى تراث ثوري طويل يعود إلى أواسط القرن التاسع عشر. وقد كان خصما سياسيا مرهوبا لحزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي. كانت له الهيمنة المطلقة في الحركة الفلاحية. بالإضافة إلى تأثير مهم في المنشآت الصناعية الكبرى في المدن. هذا وقد كان ضعيف التنظيم ومشوشا سياسيا. وقد أمن ما بين شباط/فبراير وأب/أغسطس 1917. القاعدة الاجتماعية الضرورية لحكومة التعاون الطبقي. التي كانت المنشفية تشكل رأسها السياسي.

خلال صيف 1917. انشق الحزب الاشتراكي-الثوري إلى جناح ثوري (سبيريدونوفا. كامكوف). قريب إلى المواقف البلشفية. وجناح يمين إصلاحي (تشيرنوف. غوتز). يتعاون بصورة وثيقة مع المناشفة. وفي نهاية 1917 بات الحزب الاشتراكي-الثوري اليساري يتخطى اليمين من حيث التأثير بصورة واسعة.

فوفقا لتصور أوالي للمادية التاريخية. يحدد تطور قوى الإنتاج وتناقضات علاقات الإنتاج الاقتصادية تعاقبا وحيدا. محتوما. للمجتمعات (المجتمعات المشاعية البدائية. العبودية القديمة. الإقطاعية. الرأسمالية. الاشتراكية). إن التصور الديالكتيكي (الأكثر أصالة) للمادية التاريخية يدمج التحديدات والإكراهات الاجتماعية-الاقتصادية. لكنه يأخذ أيضا بالحسبان وزن العوامل الأخرى الخاص بها (مثلاً: الدول. الثقافات. الإيديولوجيات). وهو يشدد بوجه خاص على الدور الفاعل للصراعات الاجتماعية-السياسية. لصراعات الطبقات. وهو ما يسمح له بفهم أم مجرى التاريخ إنما يحدده التفاعل بين هذه العوامل المختلفة. وليس المنطق الحديدي بوجه الحصر للتناقضات الاقتصادية.

(4) شارل داروين عالم طبيعة وعالم أحياء انكليزي من القرن التاسع عشر معروف بأعماله حول تطور الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي. ونظرياته. أو الداروينية. غنية جدا لكن جرى تفسيرها أحيانا بصورة تبسيطية للغاية (مع الداروينية الجديدة) وأسيء تطبيقها في مجال العلوم الإنسانية.

(***فارس وأنسي ألماني (1488-1523) مشهور بهجماته الحادة. في بداية الإصلاح اليدني. ضد الأمراء والأساقفة (المعرب).

(5) روزا لوكسمبورغ. الثورة الروسية. مرجع مذکور. ص 39 وص 70-71.

(6) تدخل في هذه الفئة كل من انتفاضة كانون الثاني/يناير 1919 السبارتاكية في ألمانيا. ومحاولة أخذ السلطة في فيينا. بالنمسا. بقيادة بتلهام. بعد ذلك بقليل. وبوجه خاص "عمل آذار/مارس 1921". في ألمانيا مجددا. وانقلاب الحزب الشيوعي البلغاري ضد ستامبولينسكي. لقد أعطى أوغست بلانكي. وكان ثوريا فرنسياً مهماً جداً في القرن التاسع عشر. يستلهم الشيوعية. أعطى اسمه لـ"بلانكية". المنظور إليها على أنها إرادة الاستيلاء على السلطة عبر الاستناد إلى أقلية فاعلة وطرائق تأمرية.

لقد وُلدت جمهورية فايمار الرايخ الثالث. وفي 1918-1919، و1920-1923 بالضبط. تم إعداد كل شيء. في قمع الثورة والجماهير الألمانية -في وقت لم يلعب فيه الإصلاحيون دوراً سلبياً وحسب. بل انخرطوا بنشاط في معسكر الثورة المضادة (21).

لقد كلفت الديكتاتورية النازية والحرب العالمية الثانية (1939-1945) البشرية خمسين مليون قتيل. هاكم ما كان البديل للموس لثورة أكتوبر. هاكم في الواقع التبرير التاريخي الأكثر إذهالاً لهذه الثورة

تعريب : كميل داغر

المناشفة

كانوا يشكلون منذ عام 1903 الجناح "الثوري اليميني" في حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي. و فقط إزاء استحقاقات عام 1917 انخرطت غالبيتهم (دان، ليدر، تسريتللي) نهائياً في التعاون الطبقي. وقد تم ذلك لقاء انشقاق يساري بقيادة مارتوف ومارتينوف. فهذان الأخيران، وكانا "وسطيين" حقيقيين، اعترضوا على الحرب. ودعموا المجالس وكانا مع الثورة الاشتراكية عام 1917. لكنهما ترددا وتذبذبا إزاء المشكلة الأساسية بين مشاكل الثورة: الاستيلاء على السلطة وممارستها.

البلاشفة

كتكتل داخل حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي حتى عام 1912، بات البلاشفة الحزب الثوري الأساسي في عام 1913-1914. كاسبين لصالحهم الكوادر العمالية في المدن وقائدين إضراباً عاماً في بتروغراد. وقد تم توطيد الحزب وانغراسه وتوسيعه لقاء نضالات وجدالات داخلية حادة: في عام 1914، خروج اليمين الشوفيني، وفي آذار/مارس-نيسان/أبريل 1917، صعود جناح انتهازي جديد (ستالين-كامينيف-زنيوفيف) حائزاً للغالبية، ومستعد لدعم الحكومة الليبرالية، وللقبول بمواصلة الحرب. جناح عارض أطروحات لينين الجذرية، وفي تموز/يوليو، صراع ضد تيار يساري يغريه الاستيلاء الفوري على السلطة، معركة ضد عصبوية قسم من الكوادر القديمة، المتحفظين على الاندماج مع تيارات أخرى (من بينها تيار تروتسكي). وفي آب/أغسطس، جدال حول المبادرة الثورية واستبدال المجالس الإقليمية بلجان المصنع كقاعدة للديمقراطية العمالية، وأخيراً في تشرين الأول/أكتوبر، الجدال حول الانتفاضة ضد يمين الحزب، وهو جدال سوف يثار من جديد، مراراً، في السنوات اللاحقة.

لكن في تشرين الأول/أكتوبر، كان حزبا جماهيريا ذلك الذي خاض الصراع لأجل السلطة -حزبا تعترف به الجماهير الشعبية وتسانده.

الميجرايونتسي

كان تروتسكي، على قاعدة مواقفه الثورية الخاصة به، عضواً في التكتل المنشفي، أو مرتبطاً به. لكنه قطع علاقته به في آب/أغسطس 1914. وفي تموز/يوليو 1917، انضم مع الميجرايونتسي (لجان ما بين المناطق، أو ما بين الدوائر)، على الحزب البلشفي.

(1) نأمل أن نخصص له لاحقاً واحداً من دفاتر أمستردام.

(*) صفة الثابتية Paramétrique تأتي من كلمة ثابتة أو Paramètre، وهي كمية محددة تتوقف عليها دالة من المتغيرات المستقلة (المعرب).

(**) فلسفة ينكر القائلون بها قيمة العقل وقدرته على المعرفة (المعرب).

(2) تعتبر اللادرية انه لا يمكن معرفة الواقع ما وراء المظاهر (أي أنها مذهب يعلن ما لا يمكن معرفته في غير متناول الإنسان) أو يعتبر أي ميتافيزقا غير نافعة. إن غائية هي مجموعة تأملات تتناول مسألة قصدية Finalité العالم، أو الإنسان أو، هاهنا، التاريخ. تتجه إذا لتفسير مجرى التاريخ انطلاقاً من "قصدية" مفترضة.

(3) إن تعبير "الأولية" يشير إلى تيار في الفكر المادي يبالغ جداً في اختزال التفاعلات، لاسيما بين العوامل الاجتماعية المتنوعة، عبر تحديد سلاسل صلبة لأسباب موصلة إلى نتائج. وهو يهمل بوجه خاص البعد التاريخي في تحليل المجتمعات. ووجد الأولية أصلها في علوم الطبيعة في القرن الثامن عشر التي كثيراً ما كانت تستخدم المقارنات مع الآلات، وبوجه خاص مع ميكانيزم صناعة الساعات.

هذه المجموعة الماركسية الثورية، النشيطة والمؤثرة في بتروغراد، كانت ضئيلة العدد: بين 60 و80 عضواً عام 1915، 150 عشية شباط/فبراير 1917، و4000 في تموز/يوليو، في حين كان يضم الحزب البلشفي 180 ألف عضو في كل البلد.

تيارات الأقلية

إن ظاهرة "لجان ما بين الدوائر" تتيح لنا أن نشدد على وجود عدة تيارات ومجموعات ثورية هامشية على صعيد البلد ككل، لكنها مهمة أحياناً في مدينة، أو منشأة أو قطاع. ومن بينها الفوضويون، والنقابيون الثوريون و"القصويون" (انشقاق متطرف يساراً في الحزب الاشتراكي-الثوري، والمناشفة الأميون الموحدون (حزب صغير لكنه مؤثر بفضل جريدة نوافيا جيزن -الحياة الجديدة- لماكسيم غوركي).

الثورة المضادة العالمية

كان لانتصار أكتوبر 1917 قوة دفع عالمية عظيمة. إن الدعوة لوضع حد فوري لمذبحة الحرب وإنزال العقاب بالمسؤولين عنها -الطبقات السائدة في أوروبا- أثارت الأمل في الخنادق والروح القتالية في المنشآت.

لقد وقعت الحكومات الهدنة في تشرين الثاني/نوفمبر 1918. لكن العديد من البلدان كانت قد بدأت تهزها الأزمة الثورية، وفي مقدمتها ألمانيا الإمبراطورية. فبالإضافة إلى روسيا القيصرية، كانت المتراس الرئيسي ضد الهدم (الثوري) في القارة الأوروبية منذ عام 1789 (الثورة الفرنسية). لقد أزال استقرار البلد تعاقب سريع للنضالات. فبين 1918 و1923، راحت البروليتاريا الألمانية تسعى لـ"التحدث بالروسية". لكن كان ينقصها حزب وري على مستوى روح القتال لديها وتراثها التنظيمي. وقد سُحقت الموجة الثورية في المرة الأولى في كانون الثاني/يناير 1919. وبما أنها كانت موجة قوية، فقد صعّدت من جديد في عام 1920، ثم في عام 1921 ففي عام 1923.

إن التلاقي الممكن بين الأخاد السوفيت -وكان بلداً واسعاً مع ثروات زراعية ولكنه متخلف ورفيق الحال- وألمانيا اشتراكية، تشكل دولة عظمى صناعية قائمة في قلب أوروبا، مع بروليتاريا كبيرة العدد، ذلك التلاقي شكل تهديداً مبيتاً بالنسبة للرجعية الأوروبية. وإزاء تلك "الكتلة الاشتراكية" المحتملة، قام تحالف امبريالي واسع كان يضم الجيش الألماني (المهزوم، ولكن المهروب حتى ذلك الحين) والجيش الروسي (المنحدر، لكن الذي كان جنرالته "البيض"، أي المناهضون للثورة، يخوضون الحرب الأهلية)، والجيش

فلنكرر القول: كل ذلك يتناقض تماماً مع مذهب ماركس وتوجهه، المتمحورين حول مفهوم التحرر الذاتي للطبقة العاملة.

لقد حدس ماركس وإجلز بهذه النزعة الاستبدالية ومستتبعاتها، حين دانا، في رسالتهما المشهورة المؤرخة في أيلول/سبتمبر 1879، موقف البيان الإصلاحي لـ"الثلاثة من زوربخ" (هوشبرغ وبرنشتاين وشرام) بعبارات ساخرة جداً.

"إذا أردنا أن نكسب لقضيتنا] (كما يأمل الثلاثة من زوربخ) الشرائح العليا من المجتمع، يجب ألا نخيفها. أياً يكن الثمن. يعتقد الثلاثة من زوربخ أنهم قاموا باكتشاف مطمئن: "[يجب] أن يظهر الحزب أنه ليس مستعداً للدخول في طريق الثورة الدامية والعنيفة، لكنه عازم... على سلوك طريق الشرعية، أي الإصلاحات". [إن الخلاصة المنطقية لهذه الحجة هي إذا انه]. إذا أظهرت برلين ذات يوم مجدداً أنها مرباة تربية من السوء بحيث لا تقوم بـ 18 آذار/مارس [أي بانفجار ثوري]. سوف يكون على الاشتراكيين-الديمقراطيين، بدلاً من المشاركة في النضال بوصفهم "رعاعاً يتحرقون لتسلق المتاريس" [تعبير استخدمها "الزوربخيون"]. أن "يسلكوا على العكس طريق الشرعية". ويهدموا المتاريس، وإذا دعت الحاجة أن يسيروا بركاب القوات المجيدة ضد الجماهير الصادة والفضة والامية (19).

هاكم سلوك الإصلاحيين إيبيرت-نوسكه المتوقع والمدان قبل أربعين عاماً من الوقائع!

كان التبرير الرئيسي الذي قدمه الاشتراكيون-الديمقراطيون الألمان، بخصوص سياسية المعارضة التي انتهجوها لاستلام السلطة الاشتراكية خلال أزمة ثورية، انه يجب الدفاع عن الديمقراطية، لا بل الدفاع عنها أياً يكن الثمن، بما في ذلك ضد ملايين العمال -لا يهم هنا إذا كان هؤلاء يشكلون أغلبية [ضئيلة] أو أقلية كبيرة ضمن البروليتاريا والجسم الانتخابي.

لأجل ذلك، عليهم البدء بتجاهل أو إنكار واقع وجود تهديد مضاد للثورة (20). لكن إذ ينخرطون في طريق القمع، إذ يستخدمون لهذه الغاية جهاز الدولة القديم للطبقات المالكة، يفتحون هكذا سيرورة توطيد لـ"نخب"، معبدين هكذا الطريق التي قادت إلى السلطة الدموية للدكتاتورية النازية.

"لم يقدم أحد أدنى اعتراض حين عبرت عن رأيي بأنه يجب إعادة النظام بقوة السلاح. أصدر وزير الحرب الكولونيل رينهاردت، أمراً يعين بموجبه الجنرال هوفمان قائداً أعلى [...] وقد قُدِّم اعتراض مفاده أن الجنرال سيكون غير شعبي إطلاقاً مع العمال [...] وشددت على ضرورة اتخاذ قرار. قال أحدهم: "ألا يمكنك أن تتولى الأمر بنفسك؟ فأجبت باختصار وبحزم: "ليس لديّ اعتراض. ينبغي أن يلعب أحدهم دور كلب دومي. ولست خائفاً من الاضطلاع بهذه المسؤولية" (16)"

نوسكه ذاته لم يتردد أيضاً في الأمر بأن يلصق على جدران برلين. بعد مرور عدة أشهر. الإنذار التالي:

"تجبرني فظاظة ووحشية (هكذا) السبارتاكين الذين يقاثلوننا على إعطاء الأمر التالي: كل شخص يضبط حاملاً سلاحاً في الصراع ضد الحكومة يطلق عليه الرصاص في الحال" (17).

لقد تم تبرير هذه المجازر باسم العداة للـ"بلشفية". ويمكن أن نلاحظ ليس من دون تهكم وسخرية. أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم يغتاضون من الإرهاب الأحمر الموجه ضد الذين "يضبطون وسلاحهم بأيديهم في الصراع ضد الحكومة" (مع ذلك، فتروتسكي لم يفكر يوماً بإعدام أعضاء الجيوش البيضاء. ولم يمارس ذلك).

لكن الواقعة الأساسية ليست هنا. هاكم قادة أحزاب تنتسب إلى الاشتراكية يزعمون لأنفسهم الحق بمنع جماهير واسعة من تنظيم إضرابات أو تشكيل مواكب حتى منزوعة السلاح. باسم أولويات. و"مبادئ" وأحكام سياسية لا يشاركون فيها إطلاقاً الناس أجمعين. ولا تصدر أيضاً عن عصمة بابوية (18).

لقد اعترض المناشفة. حتى اليساريون منهم. بأقصى طاقتهم. على مبادرات الرقابة العمالية الصادرة مباشرة عن المنشآت في روسيا. لا بل أعطوا أنفسهم حق قمع هؤلاء الشغيلة حين كانوا يرفضون الانصياع لأحكامهم. هذه الغطرسة الأبوية والمدعية تصدر عن التوجه الاستبدالي نفسه الذي يحكم السلوك الستاليني. إن هذه المقارنة بين تصرفات إصلاحية وتصرفات الستالينيين تستحق الإبراز.

الفرنسية والانكليزية والأمريكية المنتصرة في الحرب. هذا التحالف سوف يكتسح الاتحاد السوفييتي.

على الصعيد السياسي. كان حاسماً الدعم الذي قدمته الاشتراكية-الديمقراطية. المنتقلة إلى جانب النظام البرجوازي. فلقد كبحت التضامن داخل عالم العمل. وأفقدت الاتحاد السوفييتي حظوته. وكسرت نمو الحركة الثورية في أوروبا الغربية. كان الهدف الوحيد هو سحق الثورة الاشتراكية وإعادة النظام البرجوازي. لقد خربت الحرب الأهلية الاتحاد السوفييتي. وفي ألمانيا والنمسا. وهنغاريا وإيطاليا. انهزمت البروليتاريا. وأحياناً بمساعدة مجموعات مسلحة خاصة من نوع جديد. هي الفرق غير النظامية في ألمانيا. والمجموعات الفاشية في إيطاليا.

إن ست سنوات من الحرب المتواصلة في الاتحاد السوفييتي بين 1914 و1920. سوف تسبب بكارثة اقتصادية. واجتماعية وإنسانية. لقد صمدت الدولة العمالية. المعزولة. لكن بناء الاشتراكية انطلق ضمن شروط صعبة بشكل مريع.

نهاية دورة

1917-1923: لقد انتهت الدورة للثورة العالمية. وبدأت دورة أخرى. هي دورة إرساء استقرار الرأسمالية على المستوى العالمي. وفي الاتحاد السوفييتي. كان الوضع مؤاتياً لظهور بيروقراطية أصحاب امتيازات. بقيادة ستالين. لقد خاض لينين. المختصر "معركته الأخيرة" ضدها. بين 1921 و1923. وفي أوروبا الغربية. انتصبت الاشتراكية-الديمقراطية (تلك "الجنة النتنة" كما كانت تقول روزا لوكسمبورغ). استعادت قيادة الحركة العمالية في معظم البلدان. وتعززت النقابات الجماهيرية في العشرينات. بفضل إصلاحات مفروضة على برجوازية أفزعتها الثورة والنضالات الجماهيرية.

لكن نصر الاشتراكية-الديمقراطية في أوروبا الغربية. المتلازم مع انتصار الستالينية في الاتحاد السوفييتي. فتح الطريق للفاشية (إيطاليا. ألمانيا. اسبانيا). إن إخفاق الثورات الاشتراكية من 1918 إلى 1923 سوف يكون ثمنه باهضاً جداً: الحرب العالمية الثانية. ولا يمكن أن نبخس تقدير أهمية تلك السلسلة المتعاقبة من هزائم البرولتاريا. إنها تتيح بوجه خاص أن نفهم بشكل أفضل حلول الوهن طويل الأمد في الحركة الثورية في المراكز الامبريالية. وسطوة النزعة الإصلاحية على الحركة العمالية في تلك البلدان.

إحالات

(*) عقدة قطعها الاسكندر المقدوني الكبير بسيفه، وتأتي هنا بمعنى العضلة، أو المشكلة الشائكة (م).

(1) ادخل كيرنسكي اسمه في المصطلحات الماركسية و"الكيرنسكية" تدل من الآن وصاعداً على الحل البرجوازي النهائي للأزمة، قبل المواجهة التي تفتح الباب للثورة البروليتارية. لما كانت عاجزة عن أن تهزم بأساليبها البونابرتية السلطة العمالية، رفعت في نظر الجماهير الواسعة من قيمة الحل "الأقصى" الماركسي-الثوري: إطاحة النظام القائم.

تجسدت هذه السياسة بشكل ملموس بطرق كثيرة. عقد اتفاق التفاهم (التعاون الطبقي) المأسس بين البيروقراطية النقابية وأرباب العمل، تشكيل حكومة ائتلافية مع البرجوازية، تصفية المجالس العمالية ليس فقط كأجهزة سلطة سياسية بل حتى كأجهزة رقابة عمالية وازدواجية سلطة داخل المنشآت، وبوجه خاص، الاتفاق السري مع هيئة الأركان الإمبراطورية، بحفز مشترك من إبيرت زعيم الاشتراكية-الديمقراطية، والجنرال غرونز:

"لم يكن أن نناقش اليوم موضع التحالف المعقود في أيام تشرين الثاني/نوفمبر تلك بين المستشار إبيرت وقادة الجيش، حتى إذا لم يكن يمكن الأخذ قطعاً برواية الاتفاق الهاتفي بين غرونز وإبيرت في ليل 9-10 تشرين الثاني/نوفمبر، فمنذ العاشر من نوفمبر، أ برق الماريشال هندنبورغ إلى القادة العسكريين بأن هيئة الأركان قررت التعاون مع المستشار "لتحاشي امتداد البلشفية الإرهابية إلى ألمانيا."

[كتب] الجنرال غرونز بعد سنوات: "لقد خالفنا ضد البلشفية" (14).

لكن ما كان إبيرت ونوسكه وغرونز يسمونه "البلشفية" كان، في ألمانيا، حركة شعبية واسعة جداً تعترض على المجتمع البرجوازي، بغض النظر عن وجود حركات مغامرة وأقلوية من أقصى اليسار، يشهد على ذلك الإضراب العام دفاعاً عن المجالس العمالية في شباط/فبراير-آذار/مارس 1919، أو في آذار/مارس-نيسان/أبريل 1920، التعبئة الجماهيرية الهائلة ضد محاولة انقلاب كاب-فون لوتفيتز.

الإصلاحية والثورة المضادة

في الفترة الثورية، تكون النتيجة الطبيعية شبه المحتومة لرفض استلام السلطة تورطاً في الثورة المضادة، لم يعد الخيار عندئذ بين الفعل والامتناع عن الفعل، بل بين العمل الثوري والعمل المضاد للثورة. يتوصل الإصلاحيون إلى قمع الحركة العفوية أو شبه العفوية أو المنظمة للجماهير الكادحة، مواجهينها بادئ ذي بدء بالمناورات والأكاذيب، ثم بالعمل العنيف (15).

إن دور غوستاف نوسكه، الوزير الاشتراكي-الديمقراطي، شهير بهذا الخصوص بشكل مفرج، فهو لم يتردد في أن يكتب:

كان يمكن. عند اللزوم. إرساء حكومة تحالف بين البلاشفة. والاشتراكيين-الثوريين اليساريين. والمناشفة اليساريين (الأميين المتحلقين حول مارتوف). والبلاشفة لم يكونوا يعارضون هذا الحل. علماً أنه حقق جزئياً. لأن حكومة ائتلاف بين البلاشفة والاشتراكيين-الثوريين اليساريين تشكلت حقاً. لكن مجموعة مارتوف هي التي رفضت. منذ اللحظة الأولى. الانخراط في هذه الطريق.

أكتوبر 1917: انقلاب أم ثورة اجتماعية؟ بقلم ارنست ماندل

الفصل الأول:

تجري حالياً حملة تحقير حقيقية لثورة أكتوبر 1917. في الشرق و في الغرب على السواء. وغالباً ما تكتسي نبرات حاكمة. وتتأسس على تزويرات للتاريخ وخرافات لا تفوقها في شيء تزييفات الستالينية وخرافات. ليست المعركة ضرورية من وجهة نظر علمية وسياسية وحسب. يتعلق الأمر بعمل سلامة فكرية لا غنى عنه. فالمعركة من أجل الحقيقة تمثل أيضاً معركة من أجل حد أدنى من اللياقة في الحياة العامة. تتعين. في هذا الفصل الأول. العودة الى ثلاث من تلك الخرافات التي تصادف بكثرة على مر الكتابات السجالية المعاصرة.

خرافة انقلاب دبرته أقلية

تتعلق أول خديعة بطبيعة ثورة أكتوبر ذاتها. فهي لم تكن. بحسب تلك الخرافة. سوى انقلاباً جهنمياً قاده زعيم بارع في المناورة. اسمه لينين. ونفذته فئة مغلقة صغيرة من الثوريين المحترفين. وان التعليقات التي تلت المحاولة الانقلابية الأخيرة في 26 غشت 1991. بموسكو. لبالغة الدلالة من وجهة النظر هذه. ولم يتردد البعض عن القول إن انقلاباً ثانياً (فاشلاً) قد أتاح. في 1991. إزالة ما خلقه انقلاب أول (ناجح) عام 1917. الحقيقة مغايرة تماماً. فقد كانت ثورة أكتوبر ذروة إحدى اعمق الحركات الجماهيرية التي شهدتها التاريخ على الإطلاق. ففي أوروبا تلك الحقبة. كان لعصيان العمال الألمان عام 1920. رداً على انقلاب كاب فون لوتفيتز Kapp-von Luttwitz. ولانتفاضة كاتالونيا في يوليو 1936. بوجه الاستيلاء العسكري-الفاشي لأنصار فرانكو على السلطة. أهمية ماثلة. لكن مع ذلك اقل حجماً ومدة. لا تترك المصادر التاريخية أي شك بما يخص تمثيلية البلاشفة في أكتوبر 1917. ولا حاجة. بقصد الاقتناع بذلك. الى العودة الى المقربين من لينين. فحجم الحركة الجماهيرية قبل ثورة أكتوبر وخلالها وبعدها أمر مثبت اليوم إثباتاً أكيداً. نكتفي بالإشارة الى بعض من الشهادات الكثيرة الصادرة عن خصوم للبلاشفة. كان ن. ن. سوخانوف منتماً للتيار الاشتراكي الثوري. ومع ذلك يؤكد: «...كان البلاشفة يعملون بصلافة وبلا هوادة. وكانوا مع الجماهير في المشاغل. طيلة النهار. وكان عشرات الخطباء. صفاراً وكباراً. يتحركون في بيتروغراد. في المصانع وفي الثكنات. كل يوم. كانوا قد اصبحوا بنظر الجماهير عنصر جماعتها. لانهم كانوا دائمي الحضور مبادرين في التفاصيل كما في اهم شؤون المنشأة او الثكنة العسكرية. اصبحوا الأمل الوحيد لانهم كانوا. وهم

الامتناع عن العمل؟ المثال الألماني

يمكن الخروج بالاستنتاج القائل إنه كان من الأفضل عدم الانخراط في طريق ثورية ما كان يمكن أن تفضي إلا إلى الفشل. وهذا الموقف ليس إلا في الظاهر موقفاً على غرار ذلك الذي اتخذه بيلاطس البنطي.(****)

في الواقع. حين يرفض الناس الفعل يؤثرون في الأحداث بالقدر نفسه الذي يؤثرون به فيها إذ يفعلون. لأنهم يختارون الوضع القائم ويتركون الطريق مفتوحة أمام الخصم الطبقي الذي يمكنه أن يتخذ المبادرة كما يحلو له. إن السكولاستيكيين على حق حين يقولون إن هناك خطايا امتناع. علاوة على الخطايا التي يتم ارتكابها.

ويمكن إبراز هذه المسألة الأساسية للخيار الاستراتيجي بالصورة الأكثر وضوحاً عن طريق المقابلة بين سلوك الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية. الحائزة على الأغلبية خلال ثورة 1918. وسلوك البلاشفة عام 1917 (كان يمين الحزب الاشتراكي-الديمقراطي المستقل. USPD. يتخذ موقفاً وسيطاً شبيهاً بموقف مارتوف في روسيا.)

فلندع جانباً مشكلة التركيب الاجتماعي لقيادة الحزب الاشتراكي-الديمقراطي الألماني. SPD. والمصالح المادية الممثلة. ولندع حتى جانباً مسألة التحفيز الفعلي لأعضاء هذا التيار الأكثر. إن كشف الحساب التاريخي الكارثي للنزعة الإصلاحية واضح تماماً (13).

لقد رفض الحزب الاشتراكي-الديمقراطي استلام السلطة. رفض أن يتخيل إمكانية تقدم نحو الاشتراكية. مهما يكن معتدلاً. رفض أن يطهر بصورة جدية جهاز الدولة الموروث من الإمبراطورية. لاسيما فروعه العسكرية والقضائية والدبلوماسية. انتقل بنسبة مئة بالمئة إلى جانب النظام القائم. الذي كان مستعداً. في الأكثر. لإصلاحه بحياء.

يشكلون كلا واحدا مع الجماهير. أسخياء بالوعود والحكايات الخارقة الجذابة رغم بساطتها. كانت الجماهير تعيش وتتخفى في انسجام مع البلاشفة. لقد كانت بين أيدي حزب لينين وتروتسكي.» «كان عبثيا بجلاء الحديث عن مؤامرة عسكرية بدل انتفاضة وطنية. بينما كانت غالبية الشعب تتبع الحزب. وبينما هو ظفر عمليا بالسلطة الحقيقية وبالنفوذ» ومن جهته يشير المؤرخ الألماني Oskar Anweiler المعروف بنقده الحاد للشيوعيين: « كان البلاشفة أغلبية في مجالس المندوبين في كافة كبريات المراكز الصناعية تقريبا. وكذا في اغلب مجالس مندوبي الجنود في مدن الحاميات» ولم يستطع مارك فيرو Marc Ferro . ذلك المنتقد الشرس الآخر للبلاشفة. تجنب ملاحظة أن: « البلاشفة كانت. في المقام الأول. نتاج جذر الجماهير. وكانت على هذا النحو تعبيرا عن الإرادة الديمقراطية.[...]». يتمثل بما يكفي تفسير جذر الجماهير في عدم فعالية السياسة الحكومية (حيث يشارك الاشتراكيون منذ مايو). التي أقامت بين الطبقات الحاكمة والطبقات الشعبية. تحت غطاء الضرورة. إجراءات توفيق. ان التفاوض لا يغير الوضع القائم باي وجه بل يؤده[...]. مذاك. برز الاستياء بالمدينة كما بالجيش. وكوفئ من كانوا ضد مبدأ تعاون الطبقات منذ بدايته. وضمنهم كان الأشد تصلبا أي البلاشفة. إجاه لينين. كان العمال يطالبون بشروط حياة اقل لا إنسانية. وكان الرفض. الفظ او الماكر. من قبل المالكين. الذي ادى الى احتلال المصانع. ومصادرة أرباب العمل. ثم. بعد أكتوبر. الى الانتقام من البورجوازيين[...]. تستند هذه الحركة على قاعدة شعبية أتينا على ذكر أشكالها التنظيمية. عندما تشارك اللجان التي تهيكلمها في الحركة المفضية الى أكتوبر. يكفي الخوف من القمع والاستياء من القادة الخونة لتفسير موقف مستبد[!]أولي. لاصلة له بالاستبداد البلشفي. لكنه متضامن مع الحركة التي ينشطها.» ويرى دان. احد ابرز قادة المناشفة. عشية أكتوبر. أن الجماهير: «بدأت بتواتر متزايد التعبير عن استيائها و نفاذ صبرها عبر حركات مندفة. وانتهت [...] الى التوجه صوب الشيوعية[...]. وتعاقبت الإضرابات. وسعى العمال الى الرد على ارتفاع كلفة المعيشة السريع برفع الأجور. لكن كل جهودهم فشلت بفعل التراجع المستمر لقيمة النقود الورقية. والقى الشيوعيون في صفوفهم شعار «الرقابة العمالية». ونصحوهم بان يتسلموا أنفسهم إدارة المنشآت من أجل منع « أعمال تخريب» من قبل الرأسماليين. بالطرف الآخر . بدأ الفلاحون الاستيلاء على الأراضي. وطرد الملاكين العقاريين وإحراق قصورهم خشية ان تفلت منهم الأملاك قبل دعوة الجمعية التأسيسية...» حُققث ثورة أكتوبر تحت شعار«كل السلطة للسوفييتات» أي لمجالس العمال. والجنود والفلاحين. يلخص المؤرخ Beryl Williams السيرورة التاريخية المفضية الى أكتوبر كما يلي: « كانت الجماهير ترى في سلطة السوفييتات. وليس في برامج الأحزاب أو الجمعية التأسيسية. الحل لمشاكلها. ووحدهم البلاشفة كانوا مائلين فعلا مع هذه السلطة السوفيتية[...]. وكان حزبهم

يقدمون شيئا متماسكا. ما عدا أوهاماً غير معقولة بخصوص ديمقراطية برجوازية مستحيلة.

لقد دافع الوسطيون من نموذج مارتوف وأوتو باور/هيلفردنغ بصورة مترددة وخجول. عن حل بديل. ما سماه مارتوف "حكومة ديمقراطية ثورية موحدة". تحالف كل الأحزاب المنتسبة إلى الاشتراكية.

كان جناح من البلاشفة بكامله ينادي أيضاً بمشروع كهذا (كما رأينا في الفصل السابق). كان مع ذلك مشروعاً غير قابل للتحقيق بشكل أساسي. وذلك ليس تبعاً "لعضوية" مفترضة لدى البلاشفة. بل لأسباب أعمق بكثير.

ففي الواقع. لم يرد الاشتراكيون-الثوريون اليمينيون والمناشفة اليمينيون إطلاقاً. أن يتخلوا عن سياسة "الدفاع الوطني". أي عن مواصلة الحرب. وهو الأمر الذي كانت له مستتبعات حتمية. وقد كتب بهذا الخصوص المنشفي من يسار الوسط. دان. وكان هو أيضاً نصيراً (أكثر فأكثر ترددا) لـ "الدفاع الوطني الثوري:"

"إن مواصلة الدفاع عن البلد. بانتظار توقيع صلح ديمقراطي. كان يتطلب إبقاء جيش يضم ملايين الأشخاص قيد الاستعداد. وفعل كل شيء لتحاشي تفككه. كان ينبغي. وبالتالي. تأجيل الإصلاح الزراعي إلى ما بعد اجتماع الجمعية التأسيسية. إن مصادرة ثورية للأملاك الملاكين الكبار وتوزيع الأراضي كانا تسببا بفرار ملايين الجنود الفلاحين الذين لا يكونون بقوا في الجبهة في ذلك الحين [...]". (12).

بتعابير أخرى. لم تكن غالبية المناشفة. علاوة على الاشتراكيين-الثوريين اليمينيين. على استعداد للقبول بالصلح الفوري. وبالتوزيع المباشر للملكيات الكبرى. وبالرقابة العمالية على الإنتاج. لقد وافق وزير العمل المنشفي سكوبيليف على إعادة سلطة الفبارك والمدراء في المنشآت. وكان ذلك شرطا لجمعية أرباب العمل. فعلى أي برنامج كان ينبغي إرساء ائتلاف حكومي؟

لقد وضع "التوفيقيون". فضلا عن ذلك. كشرط لتشكيل حكومة من هذا النوع. حكومة "جبهة عمالية متحدة". طرد لينين وتروتسكي من هذه الحكومة. وبالطبع. كان ذلك شرطا لا يمكن أن يقبل به البلاشفة. الذين كانوا حاصلين. أيّا يكن. على الأغلبية المطلقة للتفويضات إلى مؤتمر السوفييتات!

وفي اليابان. بعد محاكمة دامت 24 عاماً (!). ربح التروتست هيتاشي دعوى ضد أحد مستخدميهِ. الذي سُرِّح بعد رفضه أن يشتغل ساعات إضافية. وقد صرح بهذا الخصوص محامٍ هو الأستاذ كواهيتو. أسَّس مكتب مساعدة لذوي الأجر:

”إن هذا القانون، كالكثير من القوانين الأخرى. غامض بصورة متعمدة. والقرار الذي اتخذ اليوم غير سليم لأن الشغيلة في اليابان لن يتمكنوا. بعد الآن. من رفض الساعات الإضافية. ولأن الكاروشي (الموت من الإرهاق خلال العمل) سوف يزداد“ [...] إن واحداً من أصل 4 من ذوي الياقات البيضاء يخشى الآن الوفاة من الإرهاق في العمل. وفقاً لإحصاء تم أخيراً في طوكيو على يد شركة صيدلانية. هي النيبون كاياكو“ [...]

”واضح أن المحكمة العليا حابت رأس المال الكبير وأنها تفكر بأن القوة الاقتصادية تقوم على الساعات الإضافية. لقد أعطت الأولوية للاقتصاد على الحياة البشرية“ (10).

أما عائلة كندي فأنفقت في أقل من ستة أشهر مليون دولار للدفاع عن عضو في العائلة متهم بالاعتصاب (11). هل يمكن أن يفعل الشيء نفسه إنسان عادي؟

لا شك أن الولايات المتحدة وإيطاليا واليابان هي دول رأسمالية وليست مجتمعات ما بعد رأسمالية. لكن ذلك لا يغير شيئاً في واقع أن هذه الحالات الثلاث تبين التباس مفهوم ”دولة القانون“. إنها تثبت أن استقلال السلطة القضائية يمكن أن يدخل في نزاع مكشوف مع تكافؤ الفرص. حيث تكون هناك لا مساواة في الثروات، والمداخيل والوضع الاجتماعي. وهي ظاهرات ستبقى قائمة خلال مرحلة الانتقال التي يحيل إليها فارير.

حكومة تحالف

إن لمشكلة اختيارات العمل الممكنة، بالطبع، حجماً أكبر بكثير من حجم الاختيارات الممكنة للتكتيك البلشفي. وهي أضيق بكثير بلا ريب. وهي تنطرح قبل كل شيء على أولئك الذين يقولون بشكل حازم. من 1917 إلى اليوم. ومن بليخانوف إلى إيريك هوبسباوم: ما كان ينبغي استلام السلطة. لقد كانت ثورة أكتوبر ”قبل أوانها“.

ماذا كان ينبغي فعله بالتالي؟ انتظار تنمة الأحداث مكتوفي الأيدي؟ ترك الثورة المضادة تنتصر؟ تسليم البلد لعسكر غليوم الثاني؟ إن الإصلاحيين الروس والعالمين لا

أنداك قادرا على امتطاء الموجة الشعبية حتى الاستيلاء على السلطة» نعيد الى الأذهان ان أنصار «كل السلطة للسوفييتات» حصلوا في مؤتمر السوفييتات الثاني. على 69.6% من التفويضات. وكانت بمؤتمر مندوبي فلاحى عموم روسيا. المنعقد من 9 الى 25 ديسمبر 1917. أغلبية طفيفة (اشتراكيون ثوريون يساريون وبلاشفة) مناصرة لسلطة السوفييتات. ويخلص المؤرخ Anweiler. متفحفا موقف الجماهير إزاء حل الحكومة السوفيتية للجمعية التأسيسية في يناير 1918. قائلا: « كان الاحتجاج نادرا في صفوف الشعب ضد إجراءات الإكراه التي يقوم بها البلاشفة. وطبعاً لم يكن سبب ذلك الوحيد إرهاب فكري ومادي. مازال في تلك الحقبة ”ناعماً“ نسبياً. فكون البلاشفة استبقوا الى حد بعيد قرارات الجمعية التأسيسية. في أمور حيوية جداً من قبيل السلم والأرض. نزل بشكل لا يقل ثقلاً في الميزان [...] كانت جماهير العمال والفلاحين [...] أكثر ميلاً لتأييد الإجراءات الملموسة للأسياد الجدد [...] . رغم ما يعتري السوفييتات من نقص. سواء في مجال التنظيم أو في الغالب مجال التمثيل. كانت الجماهير تعتبرها هيأتاً ”ها«

خرافة اليوتوبيا المميته : الاشتراكية فورا

تتمثل ثاني خديعة وثاني تزييف للتاريخ في زعم ان البلاشفة قاموا بانقلابهم بقصد خلق مجتمع مثالي. فردوس على الارض. فورا او في الأمد القصير في روسيا. انهم ”رفعوا اليوتوبيا الى السلطة“ حسب تعبير المؤرخ السوفياتي Alexandre Nekritch الذي عودنا ن مع ذلك على موضوعية اكثر في كتاباته السابقة. في الواقع كانت غاية استيلاء السوفييتات على السلطة هدفين ملموسين جدا ودقيقين: الوقف الفوري للحرب. وتوزيع الأراضي على الفلاحين. وتأمين حق تقرير المصير للقوميات المضطهدة. وتفادي سحق بيتروغراد الحمراء. الذي أراد كيرنسكي تسليمها للجيش الألماني. ووقف تخريب البورجوازية للاقتصاد. واقامة الرقابة العمالية على الإنتاج. ومنع انتصار الثورة المضادة. يمكن تأليف هذه الأهداف بالصيغة الماركسية الكلاسيكية: استكمال تحقيق المهام التاريخية للثورة الديمقراطية - (الوطنية)- البورجوازية بفضل إرساء ديكتاتورية البروليتاريا. أي تدمير الدولة. وفي المقام الأول جهاز الدولة البورجوازي . طبعا شهدت الثورة حولا سريعا نحو تحقيق مهام اشتراكية. لكن ليس لان البلاشفة طوباويون. بل لأن الجماهير العمالية رفضت كل حصر ذاتي لتحررها. وفق ما توقع تروتسكي منذ 1906. فهي اذ تدرك انها السيد في الدولة وفي الشارع. لم تكن مستعدة للبقاء خاضعة في المنشآت والإذعان للاستغلال على الدوام. تكاثرت مبادرات الرقابة العمالية في المنشآت بعفوية. عشية وغداة ثورة أكتوبر. كما أفضت. بشكل شبه آلي. الى الاستيلاء على مصانع ومصادرتها. لما أقدم رجال الصناعة على إجراءات تسريح كثيفة. وحتى اغلاقات. لم يكن البلاشفة يأملون تحقيق ”يوتوبيا“. أي

الاشتراكية فوراً في روسيا وحدها. فقد كانوا في الواقع يرفضون بإجماع هكذا فكرة. لم يكتفِ أبداً لينين عن جماهير روسيا أن الوظيفة التاريخية للاستيلاء على السلطة في روسيا، متمثلةً بنظره، في تشجيع الثورة العالمية. وفي المقام الأول الثورة الألمانية (بالإضافة من كون ميزان القوى في صالح البروليتاريا بروسيا. أكثر ما هو في أي بلد آخر بالعالم). أكد Julius Branthal ما تكتسيه هذه المسألة من أهمية بنظر لينين: « أن كل مستقبل الثورة العمالية العالمية موضوع في الرهان». تتكرر هذه الحجة عملياً في كل المقالات والرسائل التي يحفز فيها لينين اللجنة المركزية. في خريف 1917، على الانتقال إلى الفعل. ويعيد: "لم يعد ممكناً الشك في تنامي نضج الثورة الاشتراكية العالمية وطابعها المحتتم [...] اننا على عتبة الثورة العالمية. سنكون خونة حقيقيين للأمية إذا لم نستجب. في لحظة مماثلة. وفي شروط مناسبة لهذه الدرجة. لنداء الثورة الألمانية (مثلاً نداء بحارة البحرية الحربية الألمانية) بقرارات فقط». بطبيعة الحال. يجب ألا يستنتج ما سلف ان توجهها نحو الاشتراكية لم يكن أساسياً في الدعوة البلشفية. وانها لم تأثر. وإن على نحو هامشي. على ما اتخذوه من إجراءات ملموسة. بالنسبة للينين والبلشفية في تلك اللحظة. كانت «سلطة السوفييتات» و«السلطة العمالية» (أو العمالية-الفلاحية) مرادفاً عملياً لتوجه اشتراكي. لكن لينين لم يكف عن التأكيد ان ذلك يعني امكان. ووجوب. السير قدماً على هذا الطريق. لا غير. كان لينين يدرك استحالة مجتمع اشتراكي مكتمل التطور (بالمعنى التقليدي. الماركسي. للكلمة: مجتمع بلا طبقات) ما دامت الثورة العالمية لم تنتصر. وكرر ذلك. في يناير 1918. أمام مؤتمر السوفييتات الثالث: «ليس لدي أي وهم: اعلم اننا دخلنا فترة انتقال إلى الاشتراكية ليس إلا. واننا لم نبلغ بعد الاشتراكية [...] اننا نبعيدون حتى عن انتهاء فترة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية. لم ننخدع أبداً بأمل إنهاؤها دون عون البروليتاريا العالمية»

خرافة حزب-فئة مغلقة من المتعصبين

ثالث خديعة وثالث تزييف للتاريخ: الزعم ان انقلاب اكتوبر 1917 مقترف من قبل فئة مغلقة صغيرة من الثوريين المحترفين. بالغة المركزية ومتزمتة يتلاعب بها لينين المتلف إلى السلطة. وحتى إلى السلطة المطلقة. في الواقع. كان الحزب البلشفي قد اصبح خلال الأشهر من فبراير إلى أكتوبر 1917. حزبا جماهيرياً يجمع الطليعة الفعلية لبروليتاريا روسيا: القادة الطبيعيون للطبقة. المعترف لهم بتلك الصفة من قبلها. وكان عدد الثوريين المحترفين (المتفرغين) في صفوفه محدوداً جداً. كان هذا الحزب اقل الأحزاب الجماهيرية بيروقراطية من بين الأحزاب الجماهيرية التي شهدتها التاريخ. فقد كان يضم بالكاد 700 متفرغ ضمن أكثر من 250 000 إلى 300 000 عضو. علاوة على انه يشتغل بكيفية ديمقراطية للغاية: كانت النقاشات والخلافات في الرأي عديدة

مقاييس شكلية صرفة للديمقراطية. مقاييس تتكشف. في الممارسة. أقل ديمقراطية بكثير مما يمكن الاعتقاد للوهلة الأولى.

يلجّ فابريز بشدة على أهمية "دولة القانون": ضرورة القانون المكتوب. المبدأ القائل بأن متهماً يفترض بريئاً طالما لم يتم البرهان على كونه مذنباً. الخ (8).

لقد أدخلت حركتنا معظم هذه المبادئ في الأطروحات التي تبنتها. خلال مؤتمريها في عامي 1979 و1985. تحت عنوان الديمقراطية الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا. لم ننتظر إذا الهزات التي حصلت في أوروبا الشرقية. أو نشر كتاب فابريز لإثباتها والدفاع عنها (9).

لكن فابريز لا يعالج سلسلة من المشكلات الأخرى التي. وإن لم تكن شكليةً فهي حقيقية للغاية. مشكلات تخاطر بإعاقة ضمان حقوق الرجل والمرأة. بلا استثناء. طالما بقيت ظاهرات بضاعية ونقدية (أي خلال كل فترة الانتقال): قابلية فساد القضاة. ضرورة الحد من عدد المحامين الذين يمكن فرداً أن يلجأ إليهم. وإلا فإن من يملكون مالاً أكثر تكون لديهم إمكانيات دفاع أكبر مما لدى الآخرين. مجانية الوصول إلى الدفاع. ضرورة رقابة عامة دقيقة. وبالتالي إلغاء المبدأ القائل إن "القضية المحكوم بها" لا يمكن أن يعاد النظر فيها. تعديلات جوهرية في أصول المحاكمات جعلها أكثر شفافية بالنسبة لجمهور المواطنين والمواطنات. تعميم مبدأ إمكانية عزل القضاة (إذا إلغاء المبدأ القائل بأنهم غير قابلين للعزل) وتوسيع مبدأ محاكم المحلفين إلى الحدود القصوى.

ليس واضحاً تماماً لماذا قد تقوّض تغييرات حقوقية عميقة كهذه حقوق الأفراد. أو "دولة القانون". أو حدّ منها. إنها. في الواقع. شروط ضرورية إذا أردنا أن يتمكن الجميع. لا أقليات ذات امتيازات وحسب (بما فيها بيروقراطيون ومثقفون) من التمتع بالكامل بحقوقهم الشكلية! كما لو بصورة فإن الانتقادات الصارمة لـ "العدالة الثورية" ترفضها دوغمائياً. كما لو بصورة مبدئية.

إن اللامساواة الاجتماعية أمام القضاء فضيحة مشهورة تماماً في "دول القانون" الخاصة بنا. وثمة ثلاثة أحداث قريبة زمنياً تؤكد ذلك. إذا اقتضى الأمر. بصورة مذهلة بالأحرى. لقد جرت تبرئة الأمير فيكتور-عمانوئيل. المطالب بعرش إيطاليا. من تهمة قتل شاب ألماني بعد محاكمة دامت أحد عشر (!) عاماً. أكان حظي مواطن ذو دخل متوسط بالإمكانية نفسها لإطالة المحاكمة بهذا المقدار؟

كانت الثورة الاشتراكية. علاوة على البدء ببناء مجتمع لاطبقات فيه. يشكلان تجربة جديدة كلياً. لم يكن يوجد في هذا الحقل أي كتاب وجيز يتضمن قواعد موضوعية سلفاً يكفي الرجوع إليها. لقد كانت الثورة الروسية مختبراً تاريخياً هائلاً، مثيراً ومأساوياً في الوقت عينه. لا يمكن التقدم إلا عبر التجربة، إلا بتلمس الطريق.

إن الممارسة وحدها يمكن أن تبرهن إذا كان هذا التدبير الملموس أو ذلك سليماً أو خاطئاً. ونحن لا نتكلم هنا على الاتجاه العام. كل مقارنة دوغمائية تنطلق من ترسيمات موضوعية سلفاً هي غير منتجة (كما الحال مع كل توجه دوغمائي صرف). كلاهما يتهربان من الخيارات الإستراتيجية الكبرى.

إن أشياء كثيرة تكون واضحة بعد فوات الأوان. لكنها لم تكن كذلك إطلاقاً في لحظة حصولها. لم يكن في وسعها أن تكون كذلك. وكما كان يقول نابليون بونابرت: "ننخرط. ثم نرى". لقد أحب لينين ترداد هذه الكلمات التي وردت على لسان معلم في التكتيك.

الأخطاء والديمقراطية الاشتراكية

لأن الأمور على هذه الحال. بالضبط. تحتاج الثورة احتياجاً حيويًا للديمقراطية السوفييتية التعددية. لتعدد الأحزاب. لحياة سياسية نشطة. للحق العلمي في النقد وتدخل الجماهير. لأنه إذا كانت الثورة. وبدء بناء مجتمع لاطبقي. هما مختبر هائل. فالأخطاء محتومة: يكون حيويًا أن نؤد امتلاك أواليات لا تتيح حاشي الأخطاء - فذاك مستحيل - بل إصلاحها بأسرع ما يمكن. ثم حاشي تكرارها في المستقبل. لقد كان لينين يذكر هو ذاته أن الطريقة التي يتصرف بها حزب حيال أخطائه الخاصة به تحدد مستقبله. وضمن هذا السياق بالضبط تكتسب الديمقراطية السوفييتية كل قيمتها.

الديمقراطية والمساواة الاجتماعية

في رأينا أن صامويل فاربر على حق بمواجهة جون ريس بما يخص الطريقة العامة للمقارنة. لكن، مجدداً. هو ليس على حق إلا بصورة عامة ومجردة وليس في عدد كبير من الأحكام الملموسة التي يصوغها. إنه يستخدم. في الواقع. بصورة مبالغ بها جداً.

ومعبر عنها. بوجه عام. على الملأ. لم تقتصر حرية التعبير هذه على بعض القادة. الذين عبروا على الملأ. بصفتهم اقلية (مثل بوخارين و"شيوعيو اليسار") حتى في جرائد يومية على حدة. بل شملت هيآت حزبية بكاملها. هكذا بعث لجنة الحزب في فيبورغ في 1917 محرضيها الخاصين الى أسطول بحر البلطيق. بقصد معارضة حجج لجنة بيتروغراد المعترية متسامحة أكثر من اللازم مع الحكومة المؤقتة. وقد تواجه على الملأ تياران بلشفيان خلال مؤتمرات لجان المصانع قبل ثورة أكتوبر. كان الأول مثلاً بيمليوتين ولارين. المدعومين من ريزانوف ولوزوفسكي وشلايابنيكوف. وكان يسعى الى تأليف الرقابة العمالية مع مطلب التخطيط المركزي. والثاني مثلاً بسربنيك وتشوبار يلح بوجه خاص على المبادرة اللامركزية بالقاعدة. وظل هذا التقليد حياً. وله آثار حتى في عام 1921 . بالمؤتمر العاشر للحزب الشيوعي. بينما استعرت المعركة من اجل منع التكتلات في الحزب الشيوعي(سنأتي لاحقاً على هذا المؤتمر). هاجم لينين بحدة . خلال النقاش. كيسليف،المنسوب الذي انتقد بعض السلط التأديبية الاستثنائية للجنة المركزية وكانت كلماته السجالية قد تجاوزت بجلاء حدود فكره. فلم يتردد من القيام فوراً بنقد ذاتي: «إيها الرفاق. أتأسف كثيراً لكوني استعملت لفظ " رشاش" [ضد كيسليف]. واعدكم الا استعمل مستقبلاً هكذا تعابير مجازية. لأنها ترعب الناس دون جدوى وبعد ذلك تجعل ردود فعلهم غير قابلة للفهم(تصفيق). ما من أحد ينوي إطلاق نار رشاش على أي كان . ونحن على يقين مطلق أن لا الرفيق كيسليف . ولا أي آخر. سيكون عليه ان يفعل ذلك» كان الحزب البلشفي آنذاك حزبا مندمجا. حتى أعلى مستوى. في المجتمع الروسي وفي قواه الحية. ذلك ما أعاد التذكير به.عشر سنوات بعد الثورة. بوجه صعود التكتل الستاليني. اول برنامج للمعارضة اليسارية. بصيغة مدهشة: «[كان] الحزب جماعة مستقلة وحية تدرك بنباهة الواقع المتغير. لانه كان مرتبطاً به بألف منوال.» إن لم تكن ثورة أكتوبر مجرد انقلاب. فهي لم تكن أيضاً مجرد خاتمة عصيان جماهيري عفوي. فقد كانت أيضاً انتفاضة معدة ومنفذة بمنهجية من طرف البلاشفة وحلفائهم أنصار سلطة المجالس العمالية : الفوضويون والاشتراكيون الثوريون اليساريون. لا يتعلق الامر بانتفاضة سرية قامت بها اقلية. انها انتفاضة منظمة في واضحة النهار . بشكل أساسي في اطار مؤسسات منبثقة عن السوفييتات. لقد كانت نتيجة شرعية جديدة فرضت نفسها على السواد الأعظم من العمال والجنود. و على قسم هام من الفلاحين بعد ذلك بفترة وجيزة. كانت شرعية السوفييتات ومجالس المصانع تتقدم شرعية الحكومة المؤقتة. وهيئة الأركان العسكرية. وأرباب العمل والملاكين العقاريين. هكذا كان العمال. في المنشآت. يعترفون اكثر فاكثر بسلطة لجان المصانع. بدلا عن سلطة ارباب العمل. في بيتروغراد. بفضل التحريض والتنظيم الذين اشرف عليهما تروتسكي بهارة. قررت كل فيالق الحامية في اجتماعات عامة على الملأ عدم الاعتراف بالأوامر

الصادرة عن حياة الأركان والتراتب العسكري . والامتثال لتلك الصادرة عن السوفييت ولجنته العسكرية الثورية. في هذه الشروط أمكن تحقيق الإطاحة "التقنية" بالحكومة المؤقتة. يوم 25 أكتوبر 1917. بإزاحة القليل جدا من الدماء: كلفت من القتلى اقل مما يموت اعتياديا بحوادث السير في نهاية أسبوع عادي في بلدان أوروبا الرئيسية. *** باختصار. ماذا مثلت إذن ثورة أكتوبر؟ انها ذروة حركة جماهيرية عظيمة. قادهما نحو استلام السلطة حزب عمالي طبيعي وثيق الارتباط بالجماهير. حزب يسعي . قبل كل شيء. الى تحقيق مطالب السكان الأنية الأكثر إلحاحا . مع استهداف مرام اشتراكية عالمية ووطنية أوسع.

حينذاك على الاختيار بين الاستسلام للبيض أو الدفاع عن الثورة بكل الوسائل المتوفرة لديهم" (7).

لكن هذه الطريقة في طرح المشكلة تعاني من ضعفين أساسيين. فأولاً. هي لا تجيب عن الاعتراض الأساسي. المتمثل في أن الديمقراطية السوفييتية قد خُنقت بشكل نهائي في لحظة حظر الأحزاب السوفييتية. بعد الحرب الأهلية. وليس حين كان الخيار إما الاستسلام أمام البيض. أو الدفاع عن الثورة بكل الوسائل. لقد جرى خنقها إذا بعد النصر. في حين لم يعد أي جيش أبيض موجوداً على أرض روسيا السوفييتات.

كانت التدابير المتخذة آنذاك تستلهم الفكرة القائلة إنه لما كان قد تحقق النصر في الحرب الأهلية. فسوف تتناقض تعبئة البروليتاريا الثورية. وكان زوال التعبئة هذا يخاطر بأن يهدد. في رأي البلاشفة. السلطة السوفييتية. أكثر مما كانت قد فعلت الجيوش البيضاء. إن جون ريس لا يشير إلى هذا التفسير. وهو لا يكشف إذا طابعه غير المنطقي والخاطيء.

ثم يذوّب ريس مشكلات ملموسة في صيغة مجردة وعامة. لم تكن المسألة هي معرفة ما إذا ينبغي. عموماً. استخدام "كل الوسائل" للدفاع عن سلطة السوفييتات. ومنع إحراز البيض نصراً ما. إن السؤال المطروح هو معرفة ما إذا كان هذا التدبير الملموس أو ذلك يسهل المواصلة الطافرة للحرب الأهلية. أو يجعلها أصعب.

هل كانت تلك هي حال تأسيس التشيكا؟ هل كانت حالة الإبقاء على مصادرات القمح في 1919-1920 وزيادة حدتها. وعموماً حالة تجاوزات "شيوعية الحرب"؟ هل كانت تلك حال حظر الأحزاب السوفييتية؟

والحال أن السلطة السوفييتية. وقادة الحزب البلشفي. كانوا يمتلكون هنا الخيار بالتأكيد: أن يتخذوا تلك التدابير أو لا يتخذوها. هل كانوا على حق؟ هل أخطأوا؟

إن ريس يحاكم كما لو أن السؤال لا ينطرح قط. وما يثير الفضول انه لا يورد الحجة الرئيسية التي يمكن أن تفسر على الأقل. إلى حد بعيد. سلوك البلاشفة في هذا الصدد. إذا لم تكن تبرره كلياً. تلك الحجة التي صاغتها روزا لوكسمبورغ في كراستها حول الثورة الروسية.

طبعاً، لا ينبغي أن نضخم المعارضة بين هذين الخيارين، الحتمية أو الإرادية، حتى إذا بقيا مختلفين بشكل أساسي. إن تبسيطاً كبيراً جداً للمشكلة يمكن أن يعكس الماء ويجعل الاختيار أشد صعوبة.

ثمة بهذا المعنى إمكانية إسرافات مغامرة، انقلابية، "بلانكية"، في المسار "الإرادي": محاولات استيلاء على السلطة من قبل أقليات لا تتمتع بدعم غالبية ذوي الأجر (6).

لكن وجود انحرافات كهذه وما تمثله من خطر لا يمكن أن يقوم عذراً للتوصل من الخيار الاستراتيجي الفعلي الذي كان ينطرح عشية أكتوبر في روسيا.

كان البلاشفة يتمتعون بوضوح بدعم غالبية البروليتاريا. كان الشعب يريد بشكل صريح تغييراً جذرياً، ثورياً. كان يلزم ضمن هذه الشروط الدقيقة انتزاع السلطة، نعم أم لا؟ إن الماركسيين الثوريين في أيامنا هذه لا يزالون مقتنعين، مثل نظرائهم في عامك 1917 وفي السنوات اللاحقة، بأن الجواب هو نعم بلا أدنى ريب.

الجبرية، الخيارات السياسية، التجربة

في فترة قريبة، أدى التفحص النقدي لتكتيك البلاشفة، في السنوات التي تلت انتصار أكتوبر، إلى مواجهة تتعلق بطبيعة الجبرية التاريخية بين جون ريس وصامويل فاربر. فالأول يتهم الثاني بالتخلي عن كل جبرية مادية، لأنه يقدم مروحة من البدائل، يحلل خيارات أخرى كان يمكن أن تكون ممكنة، بما يخص السياسية الاشتراكية الثورية في روسيا ما بين 1918 و1923.

"لا تطرح الماركسية أن الإرادة السياسية أو الأيدولوجيا يمكن أن تلعب، في كل الظروف، دوراً أساسياً، إن الدرجة التالية التي يمكن للشغيلة وفقاً لها أن يصنعوا تاريخهم الخاص" تتوقف على وزن العوامل الموضوعية التي تضغط بثقلها عليهم [...] وفي روسيا (بعد أكتوبر 1917) كانت حدود عملهم الصمود في وجه حصار في ظل إكراهات أكثر فأكثر وثوقاً. إن كل ذرة من الإرادة والوعي السياسي كان يجب أن تستخدم للدفاع عن الدولة العمالية وخاشي إطاحتها. كان "العامل الذاتي" يقتصر

الفصل الثاني: الرهان العالمي

لا يمكن انتصار ثورة أكتوبر خارج سياق الحرب العالمية الأولى 1914-1918. فمن بين كل الشعارات البلشفية، كان لشعار الوقف الفوري للحرب، و"السلم من دون إحاقت أو تعويضات"، أوسع صدى في صفوف السكان. وقد بات الملمح المميز الرئيسي، الذي يفرق البلاشفة عن الأحزاب الأخرى التي تنتسب إلى الاشتراكية، وإلى الثورة. إن الجنود، قبل كل شيء، وغالبيتهم الكبرى من الفلاحين، لم يكونوا يريدون الحرب.

إن تفكك الجيش، وكان في جانبه الأساسي لا يزال مالياً للقيصر، نزع سلاح الحكومة المؤقتة، ثم المحاولات الأخيرة للثورة المضادة، وهذا ما أتاح انتصار ثورة أكتوبر وتوطدها، وقد سلم بذلك، في ما بعد، المناشفة الأكثر بعد نظر، فقيادتهم دان يؤكد بصورة قاطعة أن: "إطالة الحرب عادت على البلاشفة بالنصر في الثورة الروسية" (1).

أضف إلى ذلك أيضاً، أن رد البلاشفة والسوفييتات، بعد اكتساب السلطة في أكتوبر 1917، يسمح بإصدار حكم في العمق بصدد سياسة الدولة الثورية الجديدة.

حق الشعوب في تقرير مصيرها

إن أول خطاب ألقاه لينين أمام المؤتمر الثاني للسوفييتات، لعرض سياسة السلطة الجديدة المنبثقة من أكتوبر، كان تقريره بصدد السلم، ووجد فيه تأكيداً شديداً للهجة لحق الأمم في تقرير مصيرها، لا تزال نبراته الديمقراطية ذات راهنية كبيرة حتى اليوم: "إذا جرى الإبقاء قسراً على أمة في حدود دولة معينة، وإذا لم يتم منحها، رغم الرغبة التي أبدتها -لا يهم إذا كان قد تم التعبير عن تلك الرغبة في الصحافة أو في الجمعيات الشعبية، أو في قرارات الأحزاب، أو في عصيانات وانتفاضات ضد النير القومي- إذا لم يتم منحها حق أن تحسم، بتصويت حر ومن دون أي إكراه، بعد الإجلاء الكامل لجيش الأمة التي هي مرتبطة بها أو عموماً لجيش أمة أقوى، مسألة أشكال وجودها السياسي، يكون ارتباطها عندئذ إلحاقاً أي استيلاء وعمل عنف."

"إن مواصلة تلك الحرب لمعرفة كيف تتقاسم الأمم القومية والغنية الشعوب الضعيفة التي وقعت في قبضتها إنما هي، في رأي الحكومة (السوفييتية)، كبرى الجرائم ضد الإنسانية، وهذه الحكومة تعلن رسمياً عن استعدادها لأن توقع فوراً شروط سلم تضع حداً لهذه الحرب، وهي شروط سبقت الإشارة إليها تقوم على المساواة والعدل لكل الشعوب من دون استثناء!" (2).

لقد وسعت الحكومة السوفييتية مبدأ حق الشعوب هذا في تقرير مصيرها

ليشمل كل المستعمرات ونصف المستعمرات خارج أوروبا. ولقد كان عملاً ثورياً أحدث انعكاسات تاريخية هائلة. أعطى دفعاً حاسماً لحركات التحرر القومي الوليد في بلدان كالهند، والصين، واندونيسيا، ناهيك عن دعم مهم لحركات المناهضة الامبريالية كانت قد باتت مهمة (تركيا).

وفي أحد التصريحات الأولى التي أدلت بها الحكومة السوفييتية خلال مفاوضات السلام مع ألمانيا في بريست ليتوفسك، بتاريخ 30 كانون الأول/ديسمبر 1917، نادى بتوسيع حق الأمم في تقرير مصيرها، الذي اعترف به الرئيس الأمريكي ولسون، ليشمل كل البلدان المستعمرة، ونصف المستعمرة. وفي الوقت نفسه، ألغت الحكومة كل المعاهدات غير المتكافئة مع الصين، لاسيما تلك المتعلقة بسكة حديد الشرق الصيني، وحق الحصانة السياسية للمواطنين الروس في الصين ومونغوليا، وإيران. في كل حال، لقد نص على هذه المبادئ الدستور السوفييتي الأول، دستور جمهوريات روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية لعام 1918.

لقد كان رد فعل القوى المناهضة للامبريالية في آسيا فوراً. ففي الصين، أطلقت على البلاشفة تسمية الهوانغ إي تانغ، "حزب الأنسية الأعظم". وأرسل صن يات صن، القيادي القومي الصيني، رسالة تضامن إلى لينين، وفي إيران، نسبت الحركة الوطنية-الديمقراطية نفسها لثورة أكتوبر. بعد أن سحب تروتسكي القوات والمدربين الروس من هذا البلد.

كانت إحدى نتائج هذه السياسية مؤتمر شعوب الشرق المشهور في باكو، عام 1920.

وللمرة الأولى في التاريخ، ألغت سلطة السوفييتات أيضاً الدبلوماسية السرية، مقرررة نشر كل الوثائق الدبلوماسية وكل المعاهدات السرية. ولقد قررت بوجه خاص، البدء فوراً بمفاوضات الهدنة مع كل الحكومات المتحاربة، المستعدة للانخراط في هذا السبيل.

أكتوبر 1917: ثورة لأجل السلام

تلازم هذا النداء مع نداء إلى شغيلة البلدان الامبريالية الكبرى للانخراط في طريق السلام والاشتراكية:

"إذ توجه الحكومة المؤقتة للعمال والفلاحين في روسيا عرض السلام هذا إلى حكومات كل البلدان المتحاربة وشعوبها، تتوجه أيضاً، وبوجه خاص، إلى العمال الواعين للأمم الثلاث الأكثر تقدماً في العالم وللدول الأهم المنخرطة في الحرب الحالية: انكلترا وفرنسا وألمانيا. لقد قدم عمال هذه البلدان أجلّ الخدمات لقضية التقدم والاشتراكية: الأمثلة الرائعة للحركة الشارتية في انكلترا، سلسلة من

نصف دارويني (4). كان تستتبع أن الاشتراكيين، حتى ولو واجههم انفجار ثوري، لم يكونوا بقادرين، في الواقع، إلا على أن يخضعوا لسير الأحداث العنيد.

كانت المقاربة الإرادية تستتبع، على العكس، أن الاشتراكيين واعون إمكانية التأثير بصورة حاسمة في النهاية التاريخية، بواسطة عملهم الخاص بهم. لكن تعود للبلاشفة ميزة السعي للقيام بذلك الرئيسية. وكان ذلك هو الدرس الرئيسي الذي استخلصته روزا لوكسمبورغ من أحداث أكتوبر، وهو درس دفع بها إلى تلطيف انتقاداتها للينين وتروتسكي ودعم الثورة الروسية بحماس:

"ما يمكن حزباً أن يقدمه، في اللحظة التاريخية، من شجاعة، وقوة عمل، ورؤية خاطفة ثورية ومنطق، قدّمه لينين وتروتسكي ورفاقهما بسخاء. كل الشرف الثوري والقدرة على العمل اللذين افتقدتهما الديمقراطية الاشتراكية في الغرب تمتع بهما البلاشفة. لم تنفذ ثورة أكتوبر بالفعل الثورة الروسية وحسب، بل أنقذت أيضاً شرف الاشتراكية العالمية."

وأيضاً:

"إن المهم هو أن نميز في سياسة البلاشفة ما هو أساسي ما هو ثانوي، الجوهر من العرض. ففي هذه الفترة الأخيرة التي بتنا فيها عشية المعارك الحاسمة في العالم بأسره، كانت المشكلة الأهم بالنسبة للاشتراكية ولا تزال القضية الراهنة الحارقة التالية: ليس هذا التفصيل التكتيكي أو ذاك بل قدرة البروليتاريا على العمل، قوة العمل لدى الجماهير، إرادة امتلاك السلطة في الاشتراكية على وجه العموم، وعلى هذا الصعيد كان أمثال لينين وتروتسكي، مع أصدقائهم، أول من سبقوا البروليتاريا العالمية بمثالهم، هم إلى الآن الوحيدون الذين في وسعهم أن يهتفوا مع أولريخ فون هوتن (***) "لقد جرتأت.""

"هذا هو الجوهري وما يبقى من سياسة البلاشفة. بهذا المعنى، يبقى لهم الفضل الصامد أبداً في التاريخ المتمثل في كونهم قادوا البروليتاريا العالمية عن طريق انتزاع السلطة السياسية وطرحهم في الممارسة مشكلة تحقيق الاشتراكية، ناهيك عن كونهم دفعوا بقوة إلى الأمام تصفية الحساب بين رأس المال والعمل في العالم، وفي روسيا، لم يكن بالإمكان أكثر من طرح المشكلة، لم يكن ممكناً حلها، وبهذا المعنى، فإن المستقبل هو لك "بلشفية" في كل مكان" (5).

على العكس، تقوم المقاربة الإرادوية للإستراتيجية في الفترة الثورية على الفكرة القائلة بأنه، مهما كان وزن العوامل الموضوعية (الاقتصادية، والاجتماعية، والتراث التاريخي والثقافي) التي تحدد جزئياً مجرى الأحداث، فليس هذا الأخير محددًا سلفاً بالكامل. إن العمل الملموس للطبقات الاجتماعية (وكتلتها الرئيسية) ونشاط الأحزاب وقادتها وتوجههم الدقيق يمكن أيضاً أن ينزل بثقله بصورة حاسمة على مجرى الأحداث.

جبرية ثابتية (*)

ليسس المقصود أن نعارض بمقاربة جبرية (مائلة مع "الحتمية") فلسفة لا أدبية (**) أو غائية للتاريخ (قد تتم مائلتها بـ"الإرادوية") (2). إننا نتكلم هنا على إرادوية حتمية الضغوط التاريخية-المادية الكبرى.

المقصود هو خاشي السقوط في جبرية أولية Mécansite وخطية Linéaire جعلت من الخطأ فضيلة. عبر استبدالها بجبرية أغنى، تقوم على ديالكتيك للعوامل الموضوعية والذاتية (3). إدراك للـ"مكنات"، التي عبرنا عنها بمفهوم "الجبرية الثابتية Déterminisme Paramétrique، فهم للتاريخ يسمح بأن نأخذ في الحسبان ما يكون "كامناً"، "المضر". كان ماركس قد استخدم تصوراً كهذا في الجزء الأول من رأس المال.

ليس مجرى الأحداث محددًا سلفاً بالكامل، كما ليس عديم التحديد بالكامل. فالنهاية الممكنة للثورة تتأرجح ضمن حدود معينة سلفاً.

لم يكن ممكناً في روسيا عام 1917 الرجوع إلى نظام شبه إقطاعي، ولا ازدهار رأسمالية قائمة على الديمقراطية البرلمانية، ولا البناء الناجز لمجتمع اشتراكي لا طبقي. لكن في هذا الإطار المحدد سلفاً، كان يمكن عمل الجماهير والأحزاب وقادتها أن يفضي إلى عدة احتمالات: انتصار ثورة مضادة برجوازية مفرطة في الرجعية (ما كان يمكن أن تكون إلا دموية، قمعية، بما في ذلك تدمير الحركة العمالية وكل نشاط مستقل للجماهير العمالية والفلاحية). انتصار الثورة بفضل استيلاء السوفييتات على السلطة، بما يتيح بداية بناء مجتمع جديد (عبر دمج دعم الثورة العالمية أو استقباله على الأقل).

لقد كانت المقاربة الحتمية، في جزء كبير منها، ناجح "ماركسية" الأمية الثانية، المستلهمة أفكار كاوتسكي. وهي تصور مطبوع بقوة بجبرية أولية واقعة تحت تأثير

الثورات التاريخية ذات الأهمية القصوى التي حققتها البروليتاريا الفرنسية، وأخيراً النضال البطولي ضد القوانين الاستثنائية، وجهد طويل من الصلابة والانضباط يشكل مثلاً لعمال العالم بأسره باتجاه تشكيل منظمات بروليتارية جماهيرية في ألمانيا. كل هذه الأمثلة على البطولة البروليتارية والمبادرة التاريخية هي بالنسبة إلينا الضمانة بأن عمال هذه البلدان سوف ينجزون المهام التي يتعين عليهم الاضطلاع بها اليوم، وبأنهم سوف يحررون البشرية من فظائع الحرب وعواقبها، وبأن هؤلاء العمال سوف يساعدوننا بنشاطهم المتعدد، والحاسم، وبطاقاتهم، من دون تحفظ، على أن نخوض بنجاح وإلى النهاية النضال لأجل السلام، وفي الوقت عينه النضال لتحرير الجماهير المستغلة من كل عبودية وكل استغلال" (3).

وبمثابة خاتمة، وردت بصورة أكثر وضوحاً وتبيناً أيضاً الكلمات التالية: "في بيان 14 آذار/مارس (1917)، اقترحنا [في السوفييتات] إطاحة أصحاب المصارف، والحال أننا إقبل ثورة أكتوبر، ليس فقط لم نطح مصرفيينا الخاصين بنا، بل عقدنا أيضاً تحالفاً معهم. أما اليوم فلقد اطحنا حكومة أصحاب المصارف."

"سوف تبذل الحكومات والبرجوازية كل الجهود لكي تتوحد وتخفق في الدم الثورة العمالية والفلاحية. لكن ثلاث نوات من الحرب علمت الجماهير كفاية، تثبت ذلك" حركة السوفييتات في بلدان أخرى، وانتفاضة الأسطول الألماني التي أخمدها يونكرز الجلاد غليوم (...). سوف تتغلب الحركة العمالية وترسم طريق السلام والاشتراكية" (4).

هذا وقد خاطب تروتسكي شعوب أوروبا، التي ضربتها الحرب فأعلن ما يلي: "على العمال والفلاحين أن ينتزعوا من الأيدي المجرمة للبرجوازية قضية إحق تقريراً الحرب والسلام، وأن يقبضوا عليها بأيديهم هم." بعبارة أخرى، اعتبر البلاشفة أنه تم تصور ثورة أكتوبر كوسيلة لوضع حد للحرب، كان عليها بصورة متلازمة أن تشجع نمو الثورة الاشتراكية العالمية وتسرعها.

هل كان ذلك مبرراً من وجهة النظر التاريخية؟ نعم، بلا جدال. فالحرب العالمية كانت منعطفاً حاسماً في تاريخ الرأسمالية، كانت بداية عهد سوف تنمو فيه ملامح النظام المدمّرة، والهمجية والارتدادية نموًا عظيمًا، بالنسبة لقدرته على الحفاظ على نمو دوري لقوى الإنتاج.

كانت الحرب العالمية الأولى عشرة ملايين كائن بشري حصدتهم آلة الموت، ومن بينهم زهرة الشبيبة الأوروبية، وذلك لأهداف لا يعترف أحد اليوم بأي مشروعية لها (5). كانت الأولى في سلسلة من الكوارث سوف تقود البشرية، بعد 30 عاماً،

الفصل السابع: الرهان الاستراتيجي

تثير ثورة أكتوبر السؤال الاستراتيجي الأساسي الذي يواجه أي حركة عمالية اشتراكية: كيف يجب أن يتصرف في وضع ثوري حزب ينتسب إلى الطبقة العاملة والاشتراكية (أو الشيوعية)؟ ويحيل هذا السؤال إلى سؤال آخر. أوسع وأشمل، هو ذلك المتعلق بالإستراتيجية الاشتراكية (أو الشيوعية) على المدى البعيد. وهو سؤال لن يتطرق إليه هنا (1).

لا تقع الثورات من السماء، لا يمكنها أن تُفصل آلياً عن الفترات التي تسبقها، والتي نضجت خلالها شيئاً فشيئاً الشروط التي تفجرها. كذلك الأمر، فإن ما تكونه وما تفعله عندئذ الأحزاب التي تنتسب إلى الطبقة العاملة، يَنبُجان في جانب أساسي منهما من تركيب تلك الأحزاب ونشاطها في مراحل ما قبل ثورية أو غير ثورية (مع أنه لا يمكن إنكار أن الثورة بحد ذاتها يمكن أن تعدل بشكل ملموس بعض تلك التحديدات).

يمكن أن نلخص، على نحو مبسّط، لكن بصورة مفيدة، الفلسفتين الإستراتيجيتين المتعارضتين بصورة أساسية خلال ثورة ما بالصيغة التالية: غما الحتمية أو الإرادية.

حتمية وإرادية

تقوم المقاربة الحتمية على فكرة أن "الشروط الموضوعية" و"موازن القوى" تحدد عملياً كل شيء، وأن مجرى الأحداث مستقل إلى حد بعيد عن قرارات الأحزاب وقادتها. وأن هؤلاء تكمن بشكل أساسي في رسم الحدود بين ما هو "ممكن موضوعياً" وما تبقى (الذي يكون نزعة مغامرة وأوهاماً).

مذاك ينبغي امتلاك شجاعة القول للجماهير إن سلسلة من تطلعاتها غير قابلة للتحقيق.

كان المناشفة يجسّدون هذا التوجه خلال عام 1917. وقد كان كفلاؤهم الرئيسيون في الخارج هم الماركسيون النمساويون الذين دخل زعيمهم ومنظرهم أوتو باور في التاريخ على أنه النموذج الأصلي بالذات للماركسي المؤمن بالحتمية.

إلى الهمجية أوشويتز وهيروشيفا.

لقد كان الاشتراكيون الأكثر بعد نظر قد توقعوا ذلك قبل عام 1914: ليس فقط ثوريون كلينين، وتروتسكي، وروزا لوكسمبورغ، بل معتدلون أيضاً كجان جوريس. وبما أن ذلك النزاع القاتل كان قد بدأ، كان يجب العمل لوقفه في الحال. أياً يكن الثمن. لم يكن أي "هدف للحرب" معترف به أو مخفي يبرر مواصلة المذبحة.

لقد قاتلت حكومة السوفييتات لأجل السلم الفوري، خلال مفاوضات بريست-ليتوفسك، مع ألمانيا والنمسا-هنغاريا. كان عدد متعاضم من الشغيلة والجنود في كل البلدان قد بات يرفض الحرب وهو ما يفسر الصدى الواسع الذي لقيه الموقف (السوفييتي عبر العالم، لاسيما حين عبر عنه خريص تروتسكي على طاولة المفاوضات).

لقد صرخ مثلوا ألمانيا والنمسا-هنغاريا منددين بانتهاك كل قواعد الدبلوماسية. كيف؟ مخاطبة الجنود من فوق رأس ضباطهم؟ دعوتهم لعدم الطاعة، لا بل العصيان؟ دعوة المستعمرات للانتفاض؟ دعوة العمال إلى الإضراب؟ أن يتولى ذلك وزير للشؤون الخارجية، أليس دوسا بالأرجل لكل القواعد الأساسية للحضارة ولـ"حسن العشرة بين الأمم"؟

وسرعان ما ستحتذى الحكومتان البريطانية والفرنسية حذو خصومهما العنيدتين في الإمبراطوريات المركزية، منددين هما أيضاً بالثوريين السوفييتيين. بالمقابل فبالنسبة للشعوب، كانت "الحضارة" و"قواعد حسن العشرة بين الأمم" التي كانت الحكومات المتحاربة تزعم امتلاكها، حضارة مذبحة مجنونة، وتدمير مدن بكاملها، واضطهاد غير إنساني واستغلال. كانت "حضارة" الطاعون والموت، وكان لينين وتروتسكي يجسدان الأمل بحضارة أرقى، هي حضارة الحياة، والحرية، والحقوق المتساوية للجميع.

كانت الدعاوة الامبريالية -الملتقية معها جزئياً الاشتراكية- الديمقراطية اليمينية -أكثر حقدًا بما لا يقاس من الدعاوة المعادية للشيوعية في عصر الحرب الباردة واليوم، إلا أنها لم تلق إلا صدىً أقل بكثير بين الجماهير الكادحة. كانت هذه الأخيرة تلاحظ في الواقع صدق السلطة السوفييتية.

السلطة السوفييتية:

الأممية بالأفعال

لقد رأت تلك الجماهير أن أول دستور سوفييتي، دستور 1918، كان يلغي التمييز بين "مواطني البلد" و"الأجانب". فكل شخص يقيم في روسيا السوفييتية، ويكون مستعداً للعمل فيها، كان سيمتع فوراً بكل الحقوق السياسية، بما فيها حق التصويت. وماكلين، أحد قادة الشوبستيواردس [مندوب ورشة] في مصانع

كان يحذر بعمق هذه الأهواء، بما فيها أهواؤه هو. من هنا تصلبه الإيديولوجي. إن بعض الاحباطات الشخصية. لاسيما في علاقته بـبليخانوف، فعلت فعلها فيه بهذا الخصوص (مرجع مذکور، ص 139، 186-187). لكن هامسون ذاته يعترف بأنه في نهاية المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، تبنى لينين موقفا تصالحيا حيال المناشفة، لاسيما مارتوف. كان مستعدا للتراجع عن اقتراحه تعديل تركيب لجنة تحرير الإيسكرا، وتصلب مارتوف لا تصلبه هو تسبب بالانشقاق (المرجع ذاته، ص 182-183).

(*)الجرموزية هي المجهزة بجراميز (جمع جرموز)، أو مجسّات، وهي زوائد مفصلية قابلة الامغاط والانكماش توجد عند بعض الحيوانات تمكنها من القبض على فريتها أو التماس طريقها (م).

(22)إنها الجملة الأولى من مذكرته المؤرخة في 30 كانون الأول-ديسمبر 1922 حول "مسألة القوميات أو الحكم الذاتي" حي ينتقد بعنف سياسية ستالين في هذا المجال (المؤلفات 36، ص 618). حول تلك الفترة، انظر م. ليفين، le dernier combat de Lénine، باريس، 1978.

(23)حول تركيب الحزب البلشفي ذي الغالبية العمالية الساحقة، انظر، The Worker's Revolution in Russia - Th View from Below، مرجع مذکور.

(24)أورد هذا الاستشهاد ب.لوبلان، مرجع مذکور، ص 60 و 126.

(25)ب. وليامز، مرجع مذکور، ص 28-29.

(26)ل.تروتسكي Histoire de la Revolution Russe باريس، 1950، ص 35.

(27)ن.ك.كروبسكايا، Reminiscences of Lenin، نيويورك، 197، ص 124-125.

(28)فلنذكر بأنه في آذار/مارس 1921، بالضبط، حظر المؤتمر العاشر للحزب التكتلات، وحد من الديمقراطية داخل الحزب، فضلا عن ذلك، إن "فوج لينين" المشهور لعام 1924، الذي تمثّل بموجة تطويع أدخلت إلى الحزب مئات الألوف من العمال غير الحاصلين على تربية سياسية وغير المتمرسين بتجربة النضال، ساهم بشكل متناقض في نزع تسيّس الحزب والبروليتاريا.

الذخائر في غلاسغاو، بسكوتلندا، الذي سجنته الحكومة البريطانية [بدعم من الاشتراكيين-الديمقراطيين]، بسبب الإضراب، تقلى من الحكومة السوفييتية لقب قنصل عام للجمهورية الاشتراكية الاتحادية لسوفييتات روسيا، وحصل بذلك بالذات على الحصانة الدبلوماسية، وهو الأمر الذي اجبر لندن على إطلاق سراحه. للمرة الأولى في التاريخ، كانت سلطة دولة تبين الأفعال أنها في خدمة الطبقة العاملة العالمية. وقد كان البلاشفة يثبتون هكذا أنهم يبقون أمناء الأفضل تقاليد الحركة الاشتراكية. كانت الأمية الثانية قد أخفقت بشكل مأساوي في هذا المجال في 4 آب/أغسطس 1914، حين وافق قادتها الرئيسيون على منطلق الحرب، منتهكين بذلك أيمانهم الأكثر رسمية القرارات التي تبناها تنظيمهم خلال مؤتمرات متعاقبة.

بعد ذلك الاستسلام التاريخي، فعلت ممارسة السلطة السوفييتية الجديدة، المتطابقة هذه المرة مع المبادئ، فعلت لحفز انبعاث عظيم للنزعة الأمية لدى الجماهير أكثر من ألف خطاب أو مقالة، أو كراس أو كتاب، وهذا بالضبط هو ما أتاح خلق الأمية الثالثة، وأطلق حركة هائلة من التضامن العالمي مع الثورة الروية المحاصرة.

تراث اشتراكي: الثورة ضد الحرب

لقد وضعت السلطة السوفييتية الجديدة، في الواقع، موضع التنفيذ القرارات التي تبنتها، في 1907 و1913، الأمية الثانية بالذات، لم تكن سياسة الرد الاشتراكي، إزاء التهديدات بالحرب، تكتفي بفضح خطر مذبحة لا سابق لها، عن طريق الدعوة للحيلولة دون المجزرة أو لوضع حدج لها، فبفضل الجهود المثابرة من جانب اليسار، الذي كان يقوده آنذاك كل من لينين ومارتوف وروزا لوكسمبورغ، في مؤتمر شنتوتغارت (1907) للأمية الاشتراكية، كان القرار المصوت عليه بالإجماع يؤكد ما يلي:

"في حال اندلعت الحرب، مع ذلك، يكون على [الأحزاب الاشتراكية] أن تتدخل لإيقافها بسرعة وتستخدم بكل قواها الأزمة الاقتصادية والسياسية التي خلقتها الحرب لتحريض الشرائح الشعبية الأشد عمقا وتسريع سقوط السيطرة الرأسمالية" (6).

وفي عام 1913، كانت الأمية وجهة، في مؤتمر بال الاستثنائي، تحذيرا رسمياً للحكومات:

"فلتعرف الحكومات جيداً أنه لن يكون في وسعها، في وضع أوروبا الراهن، وإزاء الاستعدادات النفسية للطبقة العاملة، أن تفجر الحرب من دون التعرض بنفسها للأخطار.

"فلتتذكر أن الحرب الفرنسية-الألمانية تسببت بانفجار الكومونة الثوري وأن الحرب الروسية-اليابانية حركت قوى الثورة لدى شعوب روسيا. ولتتذكر أن الانزعاج الذي تسببت به مزايدة النفقات العسكرية والبحرية أعطى النزاعات الاجتماعية في انكلترا وعلى امتداد القارة حدة غير معتادة وفجر إضرابات هائلة. ستكون مجنونة إذا هي لم تشعر بأن مجرد فكرة حرب فظيعة تثير استنكار بروليتاري كل البلدان وغضبهم."

"إن الشغيلة يعتبرون بمثابة جريمة إطلاق البعض النار على البعض الآخر لمصلحة الرأسماليين. أو لإشباع كبرياء السلالات الحاكمة أو لأجل تركيبات المعاهدات السرية."

"إذا كانت الحكومات، بإلغائها كل إمكانية تطور عادي، ترغم بروليتاريا أوروبا جمعاء على القيام بثورات يائسة، فهي التي ستتحمل كل مسؤولية الأزمة التي تسببت بها" [...]

"إن البروليتاريا تعي أن عليها يقوم في هذا الحين كل مستقبل البشرية وسوف تستخدم كل طاقتها لمنع إبادة زهرة كل الشعوب المهدة بكل أهوال المجازر الهائلة والمجاعة والطاعون" (7).

لقد لخص جان جوريس، وهو وجه كبير في الحركة الاشتراكية الفرنسية، هذه الرسالة بتعبير مقتضبة، في الجملة النهائية لخطابه أثناء مؤتمر بال:

"إذ تزيد الحكومات من خطر الحرب، يجب أن ترى أن الشعوب يمكن بسهولة أن تقوم بحساباتها: إن ثورتها الخاصة بها سوف تكلفها من القتل أقل مما تسببه حروب الآخرين."

ولقد زايد فيكتور أدلر زعيم الاشتراكية-الديمقراطية النمساوية، فأكد من جهته ما يلي:

"إذا تم اقتراح الجريمة [شن الحرب]، سوف يليها عقاب تاريخي: ستكون تلك بداية نهاية حكم المجرمين."

هذه التحليلات وهذه الاحتمالات يمكن أن تبدو غير واقعية، بصورة بعدية على ضوء أحداث آب/أغسطس 1914. إلا انه يجب الإشارة إلى أنه لا لينين ولا روزا ومارتوف، ولا جوريس وأدلر، كانوا يتوقعون أن تعقب ثورة اندلاع الحرب فوراً -لقد انفجرت حقاً ثورات بعد ثلاث سنوات أو أربع.

غداة الحرب العالمية

صحيح أن أدلر هو نفسه استسلم، في آب/أغسطس 1914، أما المجرمين الذين كان يندد بهم عام 1913، وأنه فعل كل شيء، فيما بعد، للحيلولة دون الثورة بدلاً من الإعداد لها، وصحيح أيضاً أن الجماهير، بما فيها الجماهير الاشتراكية-

الأعمال هذه النقطة -إرساء نظام من هذا النوع-، حاز دعم لوناتشارسكي، وتبناه المندوبون بالإجماع (...). وكانت القيادة البلشفية الوسيطة تؤيد هذا الاقتراح بقوة. لقد جرى صد لينين في بتروغراد، وكانت منظمة مدينة موسكو، بقيادة ريكوف ونوجين، تدعم زينوفييف وكامنييف علانية. كان مكتب موسكو المناطقي، المميز بتلويته اليساري، قد قرر القبول باتتلاف إذا احتفظ البلاشفة بأغلبية المقاعد الوزارية. في 2 تشرين الثاني/نوفمبر بدأت النقطة المتعلقة بالاتتلاف تصبح ملحمة حين تبنت اللجنة التنفيذية المركزية (للسوفييتات) قراراً ينص على انه يجب أن يحصل البلاشفة على نصف المقاعد على الأقل. ولقد صوّت كل اليمين البلشفي ضد شرط الحد الأدنى هذا -كامنييف، زينوفييف...- فضلاً عن نصف مجلس مفوضي الشعب تقريباً (ريكوف، لوناتشارسكي، نوجين، ميلبوتين، تيودوروفيتش) وآخرين من بينهم لوزوفسكي والمنشفيان السابقان ريزانوف ويورنييف (...). في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر، انفجرت الأزمة. كانت اللجنة التنفيذية المركزية تناقش تدابير للحكومة بهدف كتم أفواه الصحافة غير الاشتراكية، وقد انضم منلو المعارضة البلشفية الخائفون من خطر قيام نظام ديكتاتوري، إلى أولئك الذين كانوا يدينون القيود التي فرضت على الصحف التي لم تكن تدعو للعصيان عملياً. قدم لارين (...) مشروع قرار بهذا المعنى، وقد رفض بأكثرية 31 صوتاً ضد 22، مع عدد من الامتناعات [...] وقد غادر الأعضاء الخمسة المنتقدون للينين داخل اللجنة المركزية الجلسة [...] وأعلنوا [...] فلتعش حكومة الأحزاب السوفييتية [...] انضم شليابينيكوف، مفوض الشغل، إلى هذه المجموعة في تصريح ورد فيه: "نحن ندافع عن الموقف القائل انه ضروري تشكيل حكومة اشتراكية من كل الأحزاب الموجودة في السوفييتات [...]". النص مأخوذ من ر.دانييوف The Conscience of the Revolution، نيويورك، 1969، ص 64-66.

(18) الاستشهاد وارد في س.فاريز، مرجع مذکور، 206.

(19) أ.ف. ايلين زينيفسكي، The Bolchevics in Power, Reminiscences of the year 1918، لندن 1948، ص 48-51.

(20) م.ليبمان، مرجع مذکور، ب.لوبلان، Lenin and the Revolutionary party، هيومانيتز برس، 1990، س.كوهن، مرجع مذکور.

(21) في رأي ل.هايمسون، كان لينين مقتنعاً، أكثر من ماركس و"الماركسيين الأروذكسيين" بأن الأهواء تلعب دوراً مركزياً في الخيارات الفردية والاجتماعية. لكنه

(9) لينين، "مهماتنا وسوفيت النواب العمال". المؤلفات، الجزء العاشر، ص 11-31. "المائة السود" هي التسمية المعطاة لجمعية الشعب الروسي، إحدى المنظمات الرئيسية لأقصى اليمين التي تأسست خلال ثورة 1905-1907 لمهاجمة القوى الثورية. كانت هذه المنظمات تريد أيضا الرجوع عن تدابير الإصلاح الدستورية التي اتخذها النظام تحت ضغط الأحداث في تشرين الأول/أكتوبر 1905.

(10) لينين، خطاب إلى حزب مندوبي المؤتمر التوحيدي، أعضاء التكتل "البلشفي" القديم، المؤلفات، الجزء العاشر، ص 327.

(11) لينين، "حرية النقد ووحدة العمل"، المؤلفات، الجزء 10، ص 466-467.

(12) لينين، "على العمال أن يقرروا"، المؤلفات، ج 10، ص 531.

(13) لوي فيشر، لينين، باريس: بوجوا 1966.

(14) بمناسبة "محاكمات موسكو" بالضبط، في الثلاثينات، استصدر ستالين الأحكام على غالبية الكوادر الثورية في الحزب الشيوعي وتولى تصفيتهم بهدف توطيد حكم البيروقراطية.

(15) المرجع ذاته، ص 462.

(16) يسهب هامسون، من جهته، بخصوص بنوة لينين المزعومة حيال الشعبوي/الإرهابي تاشيف، لكنه لا يقول كلمة عن مواقف فيكتور ادلر وكارل كاوتسكي حول ضرورة إدخال الوعي الاشتراكي من الخارج، أي بواسطة مثقفين، إلى الطبقة العاملة. يمكن البرهان مع ذلك، بدعم من النصوص، على أن تلك هي البنوة الحقيقية للمقطع المشهور الذي جرى انتقاده كثيرا، الوارد في كراس لينين، ما العمل؟ (انظر ل. هامسون The Russian Marxists and the origins of Bolchevism بوسطن، 1966، ص 16.

(17) هذا الحدث غير المعروف غالبا يستحق التفصيل: "حين صادق المؤتمر الثاني للسوفييتات على استيلاء البلاشفة على السلطة في 25 أكتوبر، كان ثمة تفكير عام، حتى بين البلاشفة، بأن الحكومة الجديدة ستضم ممثلين من كل الأحزاب السوفيتية. وقد حاز اقتراح مارتوف، الذي طلب أن يضع المؤتمر فوراً على جدول

الديمقراطية، تركت نفسها تستسلم للموجة الشوفينية آنذاك. هذه الوقائع لا جدال فيها، لكنه من قبيل الاستعجال أن نستخلص من ذلك أنها كانت تنبثق حتماً من ممارسة يومية إصلاحية (تدمج الإضرابات الاقتصادية وتخضير نتائج انتخابية جيدة)، لا بل أن كل ذلك كان يعكس اندماجاً متزايداً للبروليتاريا في المجتمع والدولة البرجوازيين.

لأنه كيف نفسر في تلك الشروط تحول موقف هذه الجماهير ذاتها انطلاقاً من عام 1917؟ لأي حين تسببت "الأزمة الاقتصادية والسياسية التي خلفتها الحرب" بالبؤس، والجماعة، والطاعون، والمجازر، وإلغاء الحريات الديمقراطية، تماماً كما كانت قرارات شتوتغارت وبال قد توقعته، كيف نفسر موجة الإضرابات المتعاضمة، بما فيها إضرابات سياسية، ضد "سلم النهب" الذي فرضه الألماني لودندورف على الثورة الروسية في برست ليتوفسك، في كانون الثاني/يناير 1918؟

هذا التحول أفضى، انطلاقاً من أكتوبر 1918، إلى سلسلة غير منقطعة من الثورات، بصورة متأخرة قليلاً، بالتأكيد، عما كان قد تأمل به البلاشفة. لكن الأمر كان يتعلق مع ذلك بثورات فعلية حقاً: ثورات في فنلندا، في ألمانيا، في النمسا، وفي المجر، وخلق سلطة سوفيتية في بافيري (8)، وأزمة ثورية في إيطاليا، كانت الثورة العالمية حقيقية ملموسة في ذينك العامين.

لم تكن كذلك فقط بالنسبة للبلاشفة، والاشتراكيين-الثوريين اليساريين، وقسم مهم من اليسار الاشتراكي "الوسطى" عبر العالم، بل بالنسبة للبرجوازية أيضاً، ولقد كتب الوزير الأول البريطاني، لويد جورج، في هذا الصدد:

"كل أوروبا مفعمة بروح الثورة، ثم شعور عميق ليس فقط بالاستياء، بل بالسخط والتمرد ضد شروط ما قبل الحرب، كل النظام القائم، في وجوهه السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، توجه الاتهام إليه جماهير السكان على امتداد أوروبا بأسرها."

وبخصوص الوضع في إيطاليا، خلال موجة احتلال المصانع في ايلول/سبتمبر 1920، كتب المؤرخ غايتانو سالفيميني، من جهته:

"لقد انتظر المصرفيون، وكبار الصناعيين، والملاكون العقاريون السمان الثورة الاجتماعية كنعاج تنتظر سوقها إلى المسلخ" (9).

وفي كتاب الماركسي النمساوي جوليس برونثال، تاريخ الأمية، لخص على الشكل التالي الوضع إبان أول اجتماع بعد الحرب للأممية الاشتراكية في لوسرن، في آب/أغسطس 1919:

"كانت أوروبا تتخمر، بدا أن الناس عشية صراعات حاسمة بين الثورة والثورة المضادة" (10).

وأضاف:

”بعد اجتماع مؤتمر تأسيس الأمية الشيوعية، مباشرة، حدث في أوروبا صعود ثوري بدا يؤكد صحة تشخيص لينين” (11).

وبخصوص ألمانيا، لاحظ ما يلي:

”كانت امبريالية الدول الغربية قد فرضت حدوداً على الثورة الاجتماعية في ألمانيا. لكن حتى ضمن هذه الحدود، كانت متوفرة شروط ثورة اجتماعية لضرب سلطة برجوازية رأس المال الكبير، لتحويل الصناعة الثقيلة المركزة في أيدٍ قليلة، مناجم الفحم والصناعة الكيماوية، إلى ملكية عامة، لتحطيم (قدرة) رأس المال المالي عبر فرض رقابة الدولة على المصارف، لتحطيم سلطة اليونكرز عبر توزيع الملكية العقارية الكبرى [على الفلاحين]، وبوجه خاص، لتطوير جهاز لسلطة الثورة -قوة مسلحة مجندة من بين الشغيلة الاشتراكيين وبقيادة الاشتراكيين، كما كانت حال الفولكسفيهر الذي خلته الاشتراكية- الديمقراطية النمساوية (12)“.

وفي التقرير الذي قدمه تروتسكي في مؤتمر الأمية الشيوعية الثالث، أورد حكيم مرتدين إلى الماضي للبرجوازية الأوروبية يؤكدان بالكامل صحة هذا التحليل للوضع الذي كان سائداً في 1919-1920. لقد كتبت الصحيفة اليومية الفرنسية الرجعية لوتان بهذا الخصوص، في 28 نيسان/أبريل 1921:

”كان أول أيار من العام الفائت معداً ليكون بداية إضراب عام من شأنه فتح الطريق إلى المرحلة الأولى من الثورة، أما اليوم فتسود الثقة الكبرى بخصوص جهد الأمة للتغلب على كل الأزمات المنبثقة من الحرب“.

وفي الوقت عينه، كتبت بخصوص ألمانيا الصحيفة اليومية الناطقة بلسان البرجوازية السويسرية، نيوزورشر زايتونغ:

”لا تشبه ألمانيا 1921 في شيء ألمانيا 1918، فلقد بات الوعي الحكومي من القوة بحيث تصطدم الطرائق الشيوعية بمعارضة في كل شرائح السكان تقريباً، مع أن عدد الشيوعيين نما بصورة غير محدودة، في حين لم يكونوا في الأيام الثورية غير حفنة ضئيلة من الناس المواطنين العزم“ (13).

صحيح أن الموجة الثورية لم تشهد سوى انتصارات مؤقتة خارج روسيا: إرساء جمهوريات سوفيتية سريعة الزوال في المحجر وبافير، لقد انهزمت المرحلة الأولى من الثورة الألمانية في كانون الثاني/يناير 1919، وتم وقف الثورة النمساوية بقرار من الحزب الاشتراكي النمساوي (الوسطي)، الذي تفاوض على تسوية مع البرجوازية (14).

هزائم في أوروبا:

مسؤولية الإصلاحيين عنها

إحالات

(1) ان ستيفين ف.كوهن Bolchevism and Stalinism في: روبرت س. توكر : Stalinism-essays in historical interpretation نورتن، (1977) يستشهد بعدد كبير من المؤلفين الذين يعبرون عن هذا الحكم، والمصادر كبيرة جداً بحيث يصعب نقلها هنا. فلنشر فقط، على سبيل المثال، إلى المؤلفين ميرل فاينسود، هنا ارندت، روبرت دانيلز، ميكائيل كاريوفيتش، اولام، بارنغتون مور، ارثر ب. ميندل، زيغنيو برجنسكي، روبرت هـ. ماكنيل، الكسندر سولجنستين، واستشهاد واحد كاف لإعطاء فكرة توليفية عن حكمهم، وهو مأخوذ من ميرل فاينسود، ”من الجنين التوتاليتاري ستولد التوليتارية الناجزة“.

(2) ن-فالنتينوف، Encounters With Lenin او كسفورد يونيفرسيتي برس، 1968.

(3) ل.ب. كامنيف، Lenins Literarischs Erbe هامبرغ، 1924.

(4) المرجع ذاته، ص 227

(5) المرجع نفسه.

(6) فضلاً عن ذلك، لقد جرى عملياً نسيان أن المناشفة، وليس لينين، هم الذين خلقوا مفهوم المركزية الديمقراطية.

(7) لينين، ما العمل؟ المؤلفات الكاملة، الجزء الخامس، ص 489.

(8) لينين، مقدمة لمجموعة ”في 12 عاماً“، المؤلفات، الجزء 13، ص 102-103. في 1905-1907، شهدت روسيا موجة مهمة جداً من النضالات الثورية، كانت تلك التجربة، بالنسبة لكل المنظمات، تجربة عظيمة، بالحجم الطبيعي، امتحاناً -رائزاً لصحة برامجها ولنوعية بنائها، إن تطور تلك المنظمات اللاحق- وتطور النظام القيصري -انطبع بعمق بتلك السنوات الأساسية، انظر بوجه خاص- ت شانين، The roots of otherness: Russia's Turn of century, Revolution as Moment of truth, Volume 2, Russia 1905-1907.

إن من يريد الاهتمام بتحديد أصول الستالينية يجب أن يبحث عنها بادئ ذي بدء في القوى الاجتماعية والعلاقات في بينها. وهو أمر يتناسب مع مبادئ المادية التاريخية أكثر من عدم الاهتمام إلا بميدان الأفكار. لكن بخصوص المصادر الفكرية، لا تشكل تصورات ستالين التنظيمية امتدادا لتصورات لينين: إنها تمثل على العكس فيها اللفظ والإرهابي.

إعادة إرساء الديمقراطية السوفييتية

كيف كان بالإمكان التصدي بفعالية لسيرورة التبرقظ في روسيا عام 1920، وكانت بلدا مستنزفا، أصابته المجاعة، وكانت منظومة النقلات فيه مفككة بالكامل، مع طبقة عاملة انخفض عددها إلى أقل من النصف، إذا لم يكن إلى ثلث ما كان في عام 1917، أو يكاد. طبقة عاملة في الطريق إلى التسريح السريع، لا بسبب نهاية الحرب الأهلية، بل الضرورة المطلقة للحصول فرديا على المؤن. في شروط مادية واجتماعية كهذه، كانت إعادة الفورية للديمقراطية السوفييتية، لا بل القيام بخطوات حاسمة نحو التسيير العمالي، طوبى فاقعة.

كان على قيادة الحزب والدولة أن تعطي الأولوية لإعادة إطلاق الإنتاج الزراعي قبل كل شيء، ولرفع إنتاجية العمل، وإعادة التوظيف والاستخدام.

كان خطأ لينين وتروتسكي أنهما نظرا للشروط الاستثنائية المؤقتة وعمماها، منذ بداية النيب في 1921-1922، كان قد جرى إيقاف التناقض العددي للطبقة العاملة وانحدارها الطبقي. كان قد جرى عكس الاتجاه.

في تلك الفترة بالذات، كان يمكن توسيعا تدريجيا للديمقراطية السوفييتية أن يسرّع الترميم الاجتماعي-السياسي للطبقة العاملة، بما يسهّل تسيّسها البطيء مجددا. لكن إذ حدّ القادة السوفييتيون في تلك الفترة بالضبط وبصورة صارمة ما كان باقيا على صعيد الديمقراطية، فاقموا على العكس من خطر اللاتسيّس لدى البروليتاريا والحزب (28).

يستحيل الحكم إلى أي حد كان يمكن "مسارًا جديدًا" فعليًا أن يتوّج بالنجاح. لكن النتائج المأساوية للسياسية التي جرى إتباعها في عام 1921 واضحة جدا بحيث يمكن الوصول إلى الاستنتاج التالي: ما كان طوباويا عام 1920 لم يعد كذلك انطلاقا من عام 1922.

لكن تلك التسوية لم تكن تنبع من موازين قوى غير مناسبة موضوعيا، إن علينا أن نشدد في هذا الصدد، على مسؤولية قادة ذلك الحزب الاشتراكي التاريخي الرهيبة. ففي الواقع، إن استيلاء الاشتراكيين النمساويين على السلطة - وكان آنذاك ممكنا تماما - كان عدل الوضع في أوروبا بشكل أساسي لصالح الثورة. عبر ضمان التقاء جغرافي مع الجمهوريات السوفييتية في بافيري والمجر، التي كانت أقيمت حديثا على جانبي النمسا، إن الاشتراكيين النمساويين، إذ رفضوا استلام السلطة، قطعوا سلسلة الثورة الاشتراكية، ولو تصرفوا بشكل آخر، كانت عززت كل من الجمهوريات البروليتارية الثلاث الواحدة قوة الأخرى، متسببة بانفداع ثوري كان يمكن أن ينتشر في أوروبا بأسرها (15).

أما الثورة الألمانية، التي بدأت عام 1918، ثم ضربت بقساوة، فشهدت صعودا جديداً أفضى إلى الإضراب العام المثير في آذار/مارس 1920 ضد انقلاب كاب-فون لوففيتز، وتلته موجة ثالثة في عام 1923، مع الإضراب العام ضد حكومة كونو (16).

وبوجه خاص: إذا كان لدى البلاشفة "أوهام" بخصوص الثورة العالمية، كان يشاطرهم تلك الأوهام الملايين من ذوي الأجر عبر العالم.

لم يكن هناك في المؤتمر الأول للأمية الشيوعية، في آذار/مارس 1919، غير حفنة من المجموعات الثورية لا تمثل إلا عشرات الآلاف من الأشخاص، لا أكثر، خارج روسيا، لكن في الأشهر التي تلت، توسع التعاطف "مع موسكو" إلى حد أن غالبية الشغيلة المنظمين في العديد من البلدان (إسبانيا، إيطاليا، فرنسا، النروج، بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا) وأقلية قوية في بلدان أخرى (ألمانيا قبل كل شيء) طلبت الانضمام إلى الأمية الشيوعية. وفي النمسا، وبولونيا وسويسرا، لم يتمكن قادة الأحزاب الاشتراكية من إيقاف هذا المد الجارف إلا بقطعهم. هم أيضا، مع الاشتراكية-الديمقراطية الإصلاحية وتشكيل الأمية المسماة "ثانية ونصف"، التي قدمت عهدا لصالح ديكتاتورية البروليتاريا (17).

يجب التشديد على أنه كانت لتحذر البروليتاريا العالمية العميق، بعد ثورة أكتوبر، جذور خاصة بظروف كل بلد. لم يكن مجرد نتاج تصديري قادم من موسكو (18). لقد عدل بعمق موازين القوى العالمية بين الطبقات.

ولكي نحاول البرجوازية وضع السدود في وجه الموجة الثورية، بدعم من الإصلاحيين، اضطرت لأن تقدم للبروليتاريا إصلاحات مهمة كانت قد قاتلت لأجلها سدى أكثر من 25 عاما، وقبل كل شيء يوم العمل من 8 ساعات والاقتراع العام البسيط. لقد كان التجذر من العمق بحيث حدث حتى إضراب عام في سويسرا، وأطلق الزعيم الاشتراكي-الديمقراطي ترولسترا نداء إلى الثورة في هولندا، وهما بلدان كانا قد بقيا حياديين خلال الحرب، وكانا أكثر استقرارا بكثير

من باقي أوروبا.

هذا التبدل في موازين القوى العالمية بين الطبقات أُنقذ روسيا السوفيتية من اختناق عسكري عام 1920، حين حال التهديد بالإضراب العام من جانب الحركة العمالية البريطانية بأسرها، دون تدخل الإمبريالية البريطانية إلى جانب القوى المعادية للثورة لكل من ويغان وفوش خلال الحرب الروسية البولونية (19).

بهذا المعنى الدقيق تماماً، لم تكن آمال البلاشفة في الثورة العالمية وأهمه. لا شك أن تلك الآمال كانت مبالغاً بها، إذا حدثنا عن انتصارات حاسمة وعلى المدى القصير. ولقد اعترف لينين وتروتسكي بذلك بسرعة كافية. لقد اقترفنا - بصورة تنطوي على شيء من المفارقة - خطيئة المبالغة في العفوية. كانت الموجة الثورية تبدو آنذاك عميقة جداً بحيث بخسا بعض الشيء قيمة العامل الذاتي المتمثل بالقيادة الثورية. لانتزاع النصر:

"إن ما ينتظرنا ليس هجوماً خوائباً وعفويًا لاحتظنا طوره الأول في أوروبا في 1918-1919. كان يبدو لنا (وكان ثمة بعض التبريرات التاريخية لذلك) أن هذا الهجوم يمكن أن يتواصل. في فترة كانت البرجوازية فاقدةً فيها للتنظيم، في موجات أشد فاشد عمقاً. وأن وعي شرائح الطبقة العاملة القيادية سوف يتوضح، وأن البروليتاريا ستصل بهذه الطريقة إلى السلطة في مهلة عام أو عامين. ولقد كانت هذه الإمكانيات التاريخية موجودة، لكنها لم تتحول إلى واقع مادي. لقد منح التاريخ البرجوازية - بمساعدة سوء نية البرجوازية (أو حسنها)، واحتيالها وتجربتها، وغريزتها لأجل السلطة - استراحة طويلة نسبياً، وقتاً لكي تتنفس. لم تحصل المعجزة" (20).

لكن لا جدال في أن الجماهير كانت تريد الثورة في سلسلة واسعة من البلدان والبراهين والشهادات وفيرة بهذا الخصوص. وإذا لم تنتصر المعركة الثورية خارج روسيا، على الرغم من ذلك، فذلك لأنه لم تتوفر القيادة المناسبة، لا بل لأن القيادات المسيطرة داخل الحركة الجماهيرية تدخلت بنشاط لمنع ذلك النصر.

على الرغم من ترددات وتناقضات في التشخيص الذي قدمه برونثال، هذه هي الخلاصة التي توصل إليها هو ذاته:

"لماذا لم يحصل شيء من ذلك [ثورة اجتماعية ممكنة؟] لأن الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية لم تتدخل في الثورة كحزب ثوري، لأن غالبية قادتها الساحقة، ناهيك عن الجماهير [قاعدتها الخاصة بها] كانت بعيدة عن التفكير بمنحى ثوري، ولم تكن معدة ذهنياً لامتحان الثورة" (21).

لقد دفع الشعب الألماني، والبروليتاريا الألمانية والعالمية، والبشرية جمعاء، ثمناً رهيباً لهذا الإفلاس، المستند إلى جرائم، وهو ما سنعود إليه لاحقاً.

إحالات:

نحو تصور منسجم

لم يقدم لينين يوماً تصوراً إجمالياً، متماسكاً كلياً عن الحزب ومبادئه التنظيمية. لكن يبدو، على ضوء المعطيات التاريخية، أنه كان يتقدم خطوة فخطوة في هذا الاتجاه، إن الوحدة الديالكتيكية بين النشاط الذاتي للطبقة ودور حزب الطليعة، التي هي عنصر في سيرورة التوضيح هذه، كانت تتأكد تدريجياً، إلا في "السنوات السوداء"، 1920-1921 (يقول البعض 1919-1921).

يؤكد مؤلف كليوبولد هامسون أن المثقفين والماركسيين الروس لم يتمكنوا يوماً من حل مشكلة التناقض بين العفوية والوعي، بين عمل الجماهير وعمل الطليعة الملهم والمنظم. مع ذلك، قدمت ثورة أكتوبر هذا الجواب، الذي تبرزه الصيغة المصورة والكلاسيكية التي قدمها تروتسكي في كتابه تاريخ الثورة الروسية:

"من دون منظمة فائدة، قد تتبدد طاقة الجماهير مثلما البخار الذي لا تحتويه أسطوانة مزودة بكباس. بيد أن الحركة لا تأتي من الأسطوانة ولا من الكباس، بل من البخار" (26).

يبقى أن المثال التنظيمي لـ ما العمل؟ وإن طُلب خلال فترة محدودة، أنتج عواقب: نموذجاً من المسؤولين، "رجال اللجان"، غير القادرين كيراً على التكيف مع حركة جماهيرية صاخبة، إن رقيقة لينين، كروبسكايا، تكتب في هذا الصدد أن:

"رجال اللجان" كانوا عموماً أشخاصاً واثقين كفاية من أنفسهم، كان يمكنهم أن يروا التأثير الكبير الذي يمارسه عمل اللجان على الجماهير، وعموماً لم يكونوا يعترفون بديمقراطية داخلية في الحزب. إنهم قد يتحججون بأن الديمقراطية الداخلية في الحزب لا تقدم إلا مشاكل مع الشرطة. "نحن مرتبطون بالحركة الفعلية". في أعماق ذاتهم، كانوا يزدرون بالأحرى مناضلي الحزب في الخارج [أي في المنفى] الذين، في رأيهم، لم يكونوا يجدون شيئاً أفضل من التخاصم في ما بينهم - "ينبغي إجبارهم على العمل ضمن شروط روسية". كان رجال اللجان، ينتقدون التأثير المسيطر لمركز الخارج [أي لينين]. في الوقت نفسه، كانوا يرفضون أي تجديد، لم تكن لديهم لا الرغبة ولا القدرة على التكيف مع شروط تغيير بسرعة" (27).

على كل حال، لا يمكن فهم التاريخ الفعلي لروسيا السوفياتيات بين 1918 و1923 إلا تبعاً لكل هذه العناصر المتناقضة، لا لخطيئة أصلية ما عند لينين.

إن المثال الروسي يوضح قاعدة تاريخية أعم: في الفترات غير الثورية بالضبط تولد المقدمات المنطقية البرنامجية، السياسية أو التنظيمية لـ"اختراق" الحزب الثوري خلال الصعودات اللاحقة للنضالات.

إن الأطروحة القائلة بأن الحزب الذي تصوره لينين كان حزبا يسيطر فيه بشكل أساسي مثقفون برجوازيون، لا عمال، إذا لم يكن مؤلفا من هؤلاء، لا تمتلك أي أساس فعلي (23). يدافع عن هذا الرأي، على سبيل المثال، ألفرد ميير، الذي يؤكد أيضا أن المركزية الديمقراطية كانت منظومة: "اشتغلت جيدا طالما كان الحزب بقيادة زعيم قوي، يحكم بيد من حديد" (24).

إن هذا التأكيد الثاني لا يتناسب مع الوقائع أكثر مما يفعل الأول، وللبهران على العكس، يكفي الاستشهاد بـ بيريل وليامز، المعادي جدا مع ذلك للبلاشفة ولينين:

"لقد تزايد عدد أعضاء الحزب بالتناغم مع صعود شعبية البلاشفة. عبر هذه السيرة، تحول الحزب إلى حد أنه لم يعد يمكن التعرف إليه، ففي أكتوبر، كان قد أصبح حزبا جماهيريا، بعيدا عن جمع النخبة المثقفة لعام 1903، أو عن الفكرة التي تكوّن عنه غالبا. يصعب إحصاء أرقام الأعضاء، لكن يبدو أنها تضاعفت عشر مرات، خلال العام (1917) إلى حد حدي ربع المليون. وفي أكتوبر، كان الشغيلة يمثلون غالبيتهم الكبرى [...] ومن جديد، خلافا للاعتقاد الشعبي، لم يكونوا منظمين أو موحدين بشكل وثيق، مع أنهم كانوا يتمتعون على الأرجح بانسجام أكبر، وبلا ريب بقيادة أقوى من قيادة خصومهم. لكن كانت هناك فروق كبيرة في المساعي بين اللجنة المركزية، "والنخب الدنيا" المحلية في لجان المقاطعات والسوفييتات، و"النخب ما تحت الدنيا" في المنشآت. كان المناضلون القاعديون، والمتعاطفون معهم، يميلون للعمل باستقلال ملحوظ" (25).

هذا الوصف الشريف يعطي صورة عن الاشتغال الفعلي للحزب البلشفي أصح بكثير من الخرافات المتنوعة حول "المركزية الديمقراطية" في ظل لينين، إنه يسمح بأن نفهم لماذا اضطر لينين للاصطدام بقسوة بـ"رجال اللجان" هؤلاء أربع مرات على الأقل: في 1905-1906، في بداية ثورة شباط/فبراير 1917، عشية أكتوبر، انطلاقا من 1921-1922، في المرات الثلاث الأولى، انتهى الاصدام سريعا لمصلحته، بفضل الدعم الذي حصل عليه من طليعة عمالية واسعة، بما فيه خارج الحزب، أما في المرة الرابعة، فقد غاب ذلك الدعم، مع النتائج المأساوية المعروفة التي ترتبت على ذلك.

- (1) مارتوف-دان، مرجع مذكور، ص 304.
- (2) لينين، الأعمال الكاملة، الجزء 26، ص 256.
- (3) لينين، "تقرير عن السلام في 26 تشرين الأول/أكتوبر"، المؤلفات الكاملة، الجزء 26، ص 257-260.
- (4) المرجع ذاته، ص 259-260.
- (5) لا يستتبع هذا بالطبع أنه لم تكن هناك أسباب عميقة للحرب، لاسيما التنافس بين انكلترا وألمانيا على تقاسم غنائم تفكيك الإمبراطورية العثمانية والسيطرة على الشرق الأوسط، الذي كان قد بدأ الاشتباه بثرواته النفطية، علاوة على التنافس بين روسيا القيصرية والتحالف الجرمانى-النمساوي-المجري على السيطرة على البلقان.
- (6) ج. لونغيه، الحركة الاشتراكية العالمية، باريس، 1931، ص 58 (مجموعة الموسوعة الاشتراكية).
- (7) المرجع ذاته، ص 80-81.
- (8) بافيير منطقة ألمانية على حدود النمسا، وهذا الموقع الجغرافي مهم، لأنه كان هناك اندفاع ثوري في الوقت عينه في بافيير، الواقعة غربي النمسا، وفي المجر، وعلى الحدود الشرقية للنمسا، وفي النمسا بالذات.
- (9) ج. سالفيميني، الدكتاتورية الفاشية في إيطاليا، نيويورك 1927، ص 30-31.
- (10) ج. برونثال، مرجع مذكور، ص 175.
- (11) المرجع ذاته، ص 186.
- (12) المرجع ذاته، ص 232.
- (13) ل. تروتسكي، السنوات الخمس الأولى للأمية الشيوعية، الجزء الأول، ص 177، نيويورك 1945.
- (14) لقد بين روسدولسكي Die revolutionäre Situation in Oesterreich im Jahre 1918 und die Politic der Sozialdemokraten-Der Oesterreiche Jan uarstreik; 1918, Berlin 1973 على قاعدة مواد الأرشيفات، كيف ناور القادة الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويون، بالتشارك الوثيق مع الحكومة الإمبراطورية، ليقنّوا أولا ذلك الإضراب العام الكبير في فيينا، وليخنقوه لاحقا، ويعترف اوتو باور، أحد قادة الجناح اليساري في الحزب الاشتراكي النمساوي، أن إيقاف الإضراب العام قبل أن يتحول إلى ثورة اصطدام بمقاومة شديدة في صفوف البروليتاريا.
- (15) لعرض هذا الموضوع، انظر مقدمة إ. بورديه لمصنّف يجمع نصوصاً لماكس أدلر: م. أدلر، الديمقراطية والمجالس العمالية، باريس، 1967، وتبرر إيفون بورديه رفض الماركسيين النمساويين الاستيلاء على السلطة، باخسة في الوقت

نفسه الطاقة الثورية العالمية آنذاك وخطورة النتائج.

على المدى القصير لذلك الخيار السياسي (في حين تشدد على أن فشل المشروع الماركسي النمساوي "للثورة البطيئة" أتاح صعود الفاشية اللاحق). (16) خلال الإضراب العام ضد انقلاب كاب-فون لوتفيتز اليميني المتطرف، وللمرة الأولى والوحيدة، حتى النقابات الإصلاحية دعت إلى تشكيل حكومة عمالية "صرفة" تضم الحزب الاشتراكي-الديمقراطي والحزب الاشتراكي-الديمقراطي المستقل (وسطي)، الألمانين، والنقابات. لقد قاد الجنرال فون لوتفيتز قائد قوات برلين، وولفغانغ كاب، مدير الزراعة في بروسيا، انقلاباً فاشلاً في آذار/مارس 1920. أما حكومة كونو (على اسم المصرفي ولهم كونو)، التي شكلت في نهاية عام 1922، وكانت يمينية بوضوح، فكانت تقوم في البدء على ائتلاف برلماني يتراوح بين الاشتراكيين-الديمقراطيين والأحزاب البرجوازية، لكنها استبعدت الاشتراكيين من المجلس الحكومي المصغر. (17) بلغت الموجة الثورية حتى مدينة سيتل البعيدة، في الولايات المتحدة، حيث انفجر إضراب عام اتخذ أشكالاً تنظيمية نصف سوفيتية. (18) اجتهد القيادي المنشفي اليساري، مارتوف، بعد فوات الأوان، لإعطاء تفسير "سوسيولوجي" للتجذر العمالي العالمي بعد 1917. وقد أكد ج. مارتوف (Bolscevimo mondiale, Zinaudi Toronto 1960: الأصل الروسي يعود إلى عام 1919) أن هذا التجذر نقله بوجه خاص جنود وعمال غير منظمين يتبنون وجهة نظر "مستهلكين" معارضين وجهة نظر "المنتجين" الخاصة بعمال اشتراكيين-ديمقراطيين تقليديين، من عمال متخصصين ونصف متخصصين. وهذه الأطروحة لا يمكن أن تصمد أمام الوقائع. ففي ألمانيا، وليس في روسيا وإيطاليا فقط، كان ذوو الأجر الذين اختاروا الأمية الشيوعية، شغيلة المصانع الكبرى، المتخصصين ونصف المتخصصين، قبل كل شيء، في حين تلقى الإصلاحيون دعمهم الرئيسي من الشغيلة قليلة التخصص أو غير المتخصصين، في الورش الصغيرة والمتوسطة والقطاعات الأقل تقدماً في الاقتصاد. إن الانفلاق في ألمانيا بين الحزب الاشتراكي-الديمقراطي المستقل (ح.ا.د.م.) والحزب الاشتراكي-الديمقراطي، أولاً وبين يسار ح.ا.د.م. ويمينه في ما بعد، (حتى آذار/مارس 1921)، ومن ثم عام 1923، بين الحزب الشيوعي والاشتراكية-الديمقراطية، كانت له بالضبط القاعدة الاجتماعية ذاتها. أما بخصوص روسيا، فقد برهن أ.سميث ود.ب. كونكر على أن البلاشفة تلقوا قبل كل شيء دعم العمال المتخصصين في المنشآت الكبرى (انظر: كايزر، The workers' revolution in russia 1917 The view from below، كامبريدج، 1987).

سيطرة حركة رقائق وأضحها وأعطى صورة عنها كل من مارسيل ليبمان، وبول لوبلان، والبحث الممتاز لستيفن كوهن، الذي سبق الاستشهاد به (20).

يمكن، في تقريب أول، أن نلخص على الشكل التالي نظرية حركة الرقائق هذه: في أطوار الصعود الثوري، والاندفاع الصاحب لحركة الجماهير، تتغلب النبرات الديمقراطية، لا بل الفوضوية، في كتابات لينين وممارسته. وفي أطوار الانحسار الثوري، انحطاط نشاط الجماهير، تتغلب موضوعة المركزية وحلول الحزب محل الطبقة.

إن تفسير هذه الازدواجية بالماكيافلية في غير محله وغير صحيح، إنه ينطلق من مسلّمة ذات طابع علمنفسى لا يمكن البرهان على صحتها إطلاقاً (21).

يمكن إذا اقتضى الأمر استبدال هذه المسلمة بمعادلها السوسيولوجي. إن لينين الديمقراطي والفوضوي قد يتصرف تحت ضغط الجمهور والطلبة العماليين. أما لينين المفرط في المركزية والاستبداد فيبحث عن حل براغماتي في وضع لا تفعل فيه الجماهير عملياً.

لكن هذا التفسير السوسيولوجي لا يعطي هو الآخر لينين حقه. هو لا يعطي صورة عن مجمل تاريخ روسيا في 1918-1923. وهو لا يسمح بوجه خاص بفهم العنف شبه اليائس الذي اتسم به رد فعل لينين بدءاً بعام 1922، إذا لم يكن منذ نهاية 1921، بمواجهة التبرقظ المتزايد للدولة والحزب (تبرقظ وعاه آنذاك). وهو لا يفسر "معركة لينين الأخيرة" تلك ضد البيروقراطية الجرموزية (*). ولا عنف مواجهته النهائية مع ستالين، ولا النبرات المشجبة حقاً التي لجأ إليها في تلك المناسبة:

"أنا مذنب جداً، على ما أظن، أمام عمال روسيا لأنني لم أدخل بما يكفي من القوة والقسوة...." (22)

إن أي تفسير "سوسيولوجي" لا يمكن أيضاً إلا أن يتجاهل واقعة تاريخية، تصعب مع ذلك المجادلة فيها، عارض بها بول لوبلان بصورة سليمة الرواية الميكانيكية جداً لـ"الرقاقص" كما صاغها ليبمان، في سنوات الردة، ما بين 1908، و1911، وفي النضال ضد الاتجاه "التصفوي"، أعاد لينين، على حد بعيد، جمع وتكوين الكوادر البلاشفية التي سمحت لحزبه بأن يحرز الهيمنة منذ عام 1912 داخل الحركة العمالية الروسية.

الاستقلال الفكري

افتتاح الكونغرس. قُدِّم اقتراح بانتخاب رئاسة شرف مؤلفة من لينين وتروتسكي وزينوفييف. فاعترض الفوضويون. وقد تم تبني الاقتراح. لكن فقط بغالبية ضعيفة. إذ إن عددا مهما من البلاشفة صوّتوا مع الفوضويين.

و ضد معارضة قادة الوفد البلشفي. وايلين-زانوفسكي. مثلا الحكومة. فرضا كتلة من الفوضويين والبلاشفة اليساريين أن يتمتع الكونغرس بسلطات تشريع وقرار. وفرضت الكتلة نفسها أيضا زيادة مهمة في رواتب الجنود والبحارة كانت الحكومة أعلنت إنها غير قادرة على تنفيذها (19).

ويمكن الاعتراض بأن لينين وقف بعنف -عنف لفظي بشكل أساسي لا يفضي إلى أي تدبير قمعي إداري- ضد تلك التخليات عن الانضباط.

هذا صحيح. لكن ذلك يبقى خارج الأشياء الجوهرية. لأن ما تثبته هذه الأحداث. هو أن الحزب المنبثق من تصورات لينين التنظيمية. كان من جهته غير وحيد الاتجاه. وأن الكثيرين من القادة والكوادر فيه. أكانوا عمالا أو مثقفين. احتفظوا باستقلال فكري كبير. وبروح نقدية مفرطة الحدة. وأن ممارسة هذا الحزب اليومية كانت تعكس هذا الاستقلال النقدي أكثر بكثير مما أي تربية مونوليتية (وحيدة الاتجاه) أو مفرطة في المركزية.

ينبغي أن لاحظ فضلا عن ذلك إن الهام لينين لم يكن مختلفا بشكل أساسي. ففي المؤتمر العاشر للحزب. في آذار/مارس 1921. خلال حظر التكتلات. عارض اقتراح حظر الاتجاهات أيضا. أكد بوضوح أنه حين يكون الحزب منقسما على مشكلات مهمة. يستحيل منع انتخاب قيادة على قاعدة برامج اتجاهات متميزة.

وهو بالذات. ومرارا. حين بات في وضع الأقلية داخل القيادة. قرر تجاوزها وسعى لتنظيم اتجاه أقل. لا بل دافع علانية عن مواقف أقلية.

لا يمكن إخفاء هذه الوقائع من دون تشويه تاريخ روسيا السوفييتات في أيام لينين.

توتر داخل اللينينية

صحيح أن في كتابات لينين وممارسته ملامح مختلفة أيضا. أبوية. وسلطوية. واستبدالية. ففي الواقع. إن مجمل نظرية لينين وممارسته التنظيميتين يبدو تحت

(19) في التاسع من آب/أغسطس 1920. كان قد تنظم مجلس عمل بمسعى من لجنة النقابات البرلمانية واللجنة التنفيذية لحزب العمال. والمجموعة البرلمانية في هذا الحزب لتحذير الحكومة من أن "حرباً يتم تحضيرها من جانب الحلفاء ضد روسيا السوفييتية بصد المسألة البولونية. ولقد أعلن أن حرباً كهذه ستكون جريمة لا تغتفر ضد البشرية. وقد حذر الحكومة إذا من أن كل القوة الصناعية للشغيلة المنظمين سوف تستخدم لإفئال تلك الحرب... وأن مجلس عمل سوف يتشكل على الفور لاتخاذ كل التدابير الضرورية بهدف تطبيق هذا القرار". أكثر من ألف مندوب اجتمعوا في 13 آب/أغسطس في مؤتمر وطني بهدف تشكيل مجال عمل محلية والتحضير لإضراب عام. هذا وقد تشكلت مجالس عمل في أكثر من 350 مدينة.

(20) ل. تروتسكي. المرجع ذاته. ص 219.

(21) برونثال. مرجع مذكور. ص 232.

الفصل الثالث: الرهان القومي

لقد تمت إطاحة النظام القيصري في شباط/فبراير 1917، أي قبل ثورة أكتوبر بثمانية أشهر. في ذلك الحين، بالضبط، ولدت السوفييتات، مجالس العمال، والجنود. مع ذلك، لم يكن البلاشفة، في بداية تلك المرحلة الحاسمة، يحوزون الأكثرية في السوفييتات ولم يكونوا في مواقع السلطة. إن قوى سياسية، برجوازية ليبرالية ومنشافية، هي التي شكلت الحكومة المؤقتة وسنحت لها الفرصة لإثبات قيمتها. والحال أنها تكشفت عاجزة عن حل المشكلات الشائكة التي طرحها الوضع إن هذا العجز هو الذي يفسر تزايد نفوذ البلاشفة التدريجي وظهور وضع جديد ثوري في الخريف.

لم يكن السلم الفوري المهمة الوحيدة التي واجهت الحكومة المؤقتة. كان السكان يحسون بالبحر مشكلات أخرى، وكانت السوفييتات قد التزمت بحلها من دون إبطاء دون أن يعبر ذلك دائما عن نفسه بالتحاق وإعِ بسلطة السوفييتات من جانب الجماهير.

كان ذلك صحيحا بوجه خاص على صعيد مسألة الأرض، ومسألة البؤس العمالي، ومسألة المؤسسات السياسية.

ففي هذه الميادين الثلاثة الرئيسية للحياة الاجتماعية-السياسية، كانت روسيا جُر خلفها إرثاً من الهمجية، والتخلف، تنضاف إليه انعكاسات تصنيع شديد السرعة، ومتوحش، ومفروض بعضا الاستبداد السلطوي.

إن فضل ثورة أكتوبر التاريخي يكمن في أنها أتاحت التنظيف السريع لزرائب أوجياش (*)، التي أنتجت القصرية، وكانت تعاني منها الغالبية العظمى للشعب الروسي، أسير شروط لا إنسانية.

يكفي أن نصف هذه الشروط لنلاحظ مجدداً نفاق، لا بل سخرية كل من يحملون ثورة أكتوبر مسؤولة البؤس الذي امتد في روسيا وتوسع حتى بداية العشرينات.

المسألة الزراعية

وبالتأكيد ليس الحزبان الاشتراكيان- الديمقراطيان الألماني أو النمساوي حتى في أفضل أوقاتها. وفي وسعنا إيراد أحداث لا حصر لها، نكتفي بإيراد ما يلي منها:

خلال النقاش حول ملائمة ثورة أكتوبر عمد زينوفييف وكامينيف، وكان من أعضاء اللجنة المركزية الرئيسيين، إلى اتخاذ موقف علني ضد قرار الأكثرية، في مقال ظهر في جريدة ماكسيم غوركي.

خلال النقاش حول تشكيل حكومة تحالف كل الأحزاب العمالية، غداة المؤتمر الثاني للسوفييتات، اتخذ ستة أعضاء في اللجنة المركزية وعدد من أعضاء مجلس مفوضي الشعب موقفا علنيا ضد قرار الأكثرية، لا بل استقالوا من مناصبهم لإعطاء معارضتهم وزنا أكبر (17).

صوّت ريبازانوف ولوزوفسكي، وكانا قياديين بلشفيين، ضد حل الجمعية التأسيسية، في كانون الثاني/يناير 1918، في اجتماع للجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات.

خلال توقيع صلح بريست-ليتوفسك، اصدر "الشيوعيون اليساريون" المتحلقون حول بوخارين، صحيفة يومية للدفاع عن موقفهم الأقلية.

إن الاتجاه المسمى "مركزيا ديمقراطيا" بقيادة "الشيوعي اليساري" أوسينسكي دافع في مجلة كومونست منذ عام 1918 عن مشروع للتسيير العمالي للصناعة مختلف تماما عن مشروع غالبية اللجنة المركزية، وقد بدأ يضعه في الممارسة، وإن بصورة تتسم بالحياء.

عمدت المعارضة العمالية بقيادة شليابينيكوف ومياسنيكوف وكولنتاي، والتي تأسست عام 1920، على الدفاع علانية عن مواقفها الأقلية.

في عام 1921 أيضا، اقترح القيادي في التشيكا إفرادين (ميغالده) بوجه معارضة لينين، إضفاء الشرعية على كل الأحزاب والتجمعات المعارضة التي تقبل بمنظومة الحكم السوفييتية. كان ينبغي الترخيص لهم بتقديم لوائح مرشحين منفصلة إلى انتخابات السوفييتات، وبحيازة صحافة حرة تناسب مع أحجامهم (18).

وترمز على هذا الجو رواية رواها ايلين-زينيفسكي، مفوض الشعب الملحق بالدفاع، في آذار/مارس 1918، انعقد أول كونفرانس للجنود والبحارة في الجيش الأحمر، ولدى

إن مؤلفاً كلويس فيشر يعرف مصادره تماماً. إلا أن يتغاضى عن سابق تصور وتصميم عن هذه المقاطع من كتابات لينين. ومقاطع أخرى كثيرة تتخذ المنحى ذاته (13). وفي هذا إثبات مكشوف لافتقاد الشرف الفكري وهو معتاد على ذلك في كل حال.

لقد أقام في الاتحاد السوفيتي ما بين عام 1923 و1936 كمراسل أجنبي. لاسيما للمجلة الأمريكية The Nation. وبهذه الصفة امتدح محاكمات موسكو. وهو الأمر الذي كان مفيدا جدا لستالين والستالينية العالمية (14). وفي السيرة التي كتبها عن لينين بعد ثلاثين عاما. أورد على العكس أن: "أعمال الثأر التي مارسها ستالين ضد تروتسكي أغرقت روسيا في حمام من دم. إن محاكمات موسكو خلال الثلاثينيات. التي كانت تستهدف تروتسكي في الواقع. كلفت البلد حياة قاداته الكبار (...). وفي عام 1937 جاء دور قادة روسيا العسكريين وبالآلاف. أفضل مدراء المصانع. والكتاب. والمحططين. والإداريين. (...) سوف يستحيل إلى الأبد قياس ما عادت به هذه السياسية الجنوننة من كوارث على روسيا (...)" (15).

ذلك الذي جعل من نفسه في 1936-1938 محامي تلك "السياسة الجنوننة" لا يرى أنه من الضروري صياغة كلمة أسف واحدة. أو اعتذار. أو نقد ذاتي. إنه يفضل الانتقال إلى الجهة الأخرى من المتراس.

بالأمس كان ستالين العبقرى مواصل (سياسة) العبقرى لينين. واليوم. الطاغية ستالين نتاج فرعي لميل لينين إلى السلطة الشخصية والعنف. نلاحظ ما يشترك به هذان الموقفان التعادليان: في التحليل الأخير. ستالين يتحدر من لينين. البارحة لأجل الخير. واليوم للشرف.

حزب غير وحيد الاتجاه

نقع هنا على تزوير تاريخي أكثر عمومية بكثير. نجده لدى كتاب آخرين عديدين يعالجون تاريخ روسيا السوفياتية في السنوات 1918-1923 (16). أين كان إذا هذا الحزب البلشفي المزعوم أنه وحيد الاتجاه. منبثق من ذلك الاستحواذ اللينيني المزعوم للمركزة المفرطة؟

في الواقع. لم يُر يوما حزب عمالي ينطوي على هذا القدر من الاختلافات في الرأي ومن حرية التعبير. بما فيه التعبير العلني. إلا الحزب البلشفي في تلك الفترة -

لقد تلازم إلغاء القنانة في عام 1861 مع عبء ثقيل جداً جرى تحميله للفلاحين. كان يمكن تقدير أن المردود المرمل للأراضي التي تلقاها الفلاحون آنذاك يصل إلى 648 مليون روبل ذهبي. لكن فُرض عليهم مبلغ إجمالي للتخالص هو 867 مليون روبل. وكان على الفلاح أن يدفع فضلاً عن ذلك ضريبة زراعية بقيمة 1.56 روبل بالدسياتين (الدسياتين قياس مساحة يساوي 2.7 أكر). وهو ما يساوي بصورة إجمالية 170 مليون روبل. في حين أن الملاكين الخاصين النبلاء والبرجوازيين لم يكونوا يدفعون. من جهتهم. إلا 0.23 روبل كضريبة بالدسياتين.

وفقا لتحقيق عام 1902 تراوحت المبالغ التي كان على الفلاحين أن يدفعوها ما بين 50 و100% من الدخل الصافي للمزرعة. بحسب قياسات هذه الأخيرة.

فضلاً عن ذلك. فخلال توزيع الأراضي. كان الملاكون العقاريون قد تملكوا أراضي جيدة. كانت في السابق بتصرف الفلاحين. حيث أنهم لم "يمنحوا" هؤلاء. في أغلب الأحيان. غير حق شراء الأراضي الأقل خصبا.

مقابل هذه الضريبة الباهضة. لم يحصل الفلاحون عملياً على شيء من الدولة القيصرية. ففي المناطق الداخلية من روسيا الوسطى بقيت شروط الحياة والعمل على ما كانت عليه قبل ألف سنة. لم يكن مردود الهكتار فيها غير ربع قيمته في بريطانيا العظمى. وأقل من الخمس بالنسبة لمتوسط المزارع الفلاحية (أي من دون أن نأخذ بالحسبان الحقول التي يستثمرها النبلاء والبرجوازية) (1).

ضمن هذه الشروط. كان ضغط الربح والضريبة المرفوض دفعها. عاماً بعد عام. يمنع الفلاحين من تخزين احتياطي. وهو الأمر الذي أدى من جهة. إلى استنفاد تدريجي لخصب الأرض عن طريق فرط الاستثمار [نرى هكذا أن تاريخ المشكلات البيئية لا يعود إلى العهد الستاليني!] وتسبب من جهة أخرى بمجاعات دورية. لدى كل موسم سيئ. والأسوأ كان موسم عام 1891.

ولقد كان أخطر بكثير من هذا العبء المالي. غير الممكن احتمالته بحد ذاته. النقص في الأرض. فقلد أمكن تقدير أن مساحة مزرعة قادرة على تأمين الغذاء لعائلة فلاحية كانت 6.5 إلى 7 دسياتين. [لكن] الفلاحين المشتغلين بتلك الأراضي التي كانت في السابق ملكاً للنبلاء أو أميرية لم يحصلوا إلا على 3.17 و4.9 دسياتين. ونظراً للحركة الديمغرافية والنزوح الريفي المحدود جداً. كان متوسط مساحة الأرض الموجودة بتصرف كل فلاح راشد يصل إلى 4.83 دسياتين عام 1861 و3.1 دسياتين عام 1905. حوالي

خمسة ملايين راشد في الريف لم يكونوا قادرين فعلاً على استخدام قوة عملهم. حتى عند أسفل مستوى من الإنتاجية المتوسطة. كان الفلاحون بحاجة إجمالاً لـ 60 إلى 70 مليون دسياتين أرض إضافية.

والحال انه. في عام 1905. وإزاء المئة واثني عشر مليون دسياتين تقريبا التي كانت في تصرف الفلاحين. كان هنالك 101.7 مليون دسياتين بين يدي النبلاء. والإكليروس والبرجوازية. و145 مليوناً أراضي دولة وأراضٍ أميرية. أما المشاريع الزراعية التي يزيد الواحد منها عن 50 دسياتين (15 مرة أكبر من المزرعة الفلاحية المتوسطة) فكانت تشغل لوحدها ما مجموعه 80 مليون دسياتين.

والخلاصة واضحة: لم يكن في وسع الفلاحين أن يحصلوا على الأرض التي تنقصهم إلا بالإلغاء الجذري للملكية الكبرى للنبلاء والبرجوازيين.

طالما بقيت تلك الثورة الزراعية من دون تحقيق. لم يكن في وسع الفلاحين إلا أن يستمروا في استئجار أراضي عائدة للملاكين الكبار. وفي نهاية القرن التاسع عشر. في المنطقة المسماة "الأرض السوداء" (قلب روسيا). أجر هؤلاء 50% من أراضيهم للفلاحين. وما بين 30 و40% في الجزء الباقي من البلد. كان سعر إيجار الأرض مرتفعاً جداً. ويبلغ أحيانا 50% من الموسم.

إذ أضفنا ثمن إعادة الشراء. وعبء الضريبة وعبء الربح. نحصل على عبء إجمالي على الفلاحين يستتبع الإفقار المحتوم لغالبية العائلات في الريف. لقد انخفض ما بين 1888 و1898 عدد الأحصنة التي يمتلكها الفلاحون من 19.6 إلى 17 مليوناً. وعدد الأبقار من 34.6 إلى 24.5 مليوناً. وزاد عدد المزارع المفتقرة إلى حضان بنسبة 22% خلال الفترة نفسها (كل هذه الأرقام مأخوذة من تحقيقات رسمية في تلك الفترة).

يصحح تيودور شانين بروية. بلا ريب. الإحصاءات التي استخدمها لينين في نصه العائد لعام 1908. بعنوان "البرنامج الزراعي للاشتراكية-الديمقراطية خلال الثورة الروسية الأولى". فيقدم الجدول التالي لتوزع الفلاحين في وروسيا الأوروبية حوالي عام 1905 وفقاً للملكية:

15.8% من عائلات الفلاحين موسورين تملك 15 دسياتين أو أكثر 51.8%. من عائلات الفلاحين تملك ما بين 7 و15 دسياتين.

الانشقاق. عرف الحزب الاشتراكي-الديمقراطي. قبل الأحزاب الأخرى. أن يستفيد من فترة الحرية العابرة لتحقيق منظمة شرعية مع نظام ديمقراطي مثالي. ومنظومة انتخابية وتمثيل في المؤتمر تبعاً لعدد أعضاء الحزب المنظمين (8).

"طبعاً. يمكن السبب الأساسي لهذا النجاح (نجاح البلاشفة في ثورة 1905-1907) في واقع أن الطبقة العاملة. التي شكّل أفضل عناصرها الاشتراكية-الديمقراطية. تتميز لأسباب اقتصادية موضوعية عن كل طبقات المجتمع الرأسمالي بقدره أكبر على التنظيم. لولا هذا الشرط. لكانت منظمة الثوريين المحترفين لعبة. مغامرة. واجهة لا شيء خلفها [...]". ويعبر لينين عن فكرته بشكل أوضح أيضاً حين يؤكد أنه:

"يبدو لي أن الرفيق رادين على خطأ حين يطرح [...] هذا السؤال:

سوف يبيت النواب العمال أو الحزب؟ أعتقد [...] انه يلزم إطلاقاً لهذا الحل: سوف يبيت النواب العمال والحزب معاً [...] يبدو لي أن على سوف يبيت النواب العمال بوصفه منظمة مهنية أن يتجه لضم نواب العمال. والمستخدمين. والخدم. والمأجورين في الزراعة. الخ. كل أولئك الذين يريدون ويستطيعون النضال معاً لتحسين معيشة الشعب الكادح. كل أولئك الذين يمتلكون شهامة سياسية أولية. الجمع ما عدا المائة السود (9).

"وفي المؤتمر التوحيد لعام 1906. اتفقنا جميعاً على مبدأ المركزية الديمقراطية. وعلى ضمانه حقوق كل أقلية وكل معارضة مستقيمة. وعلى استقلال كل منظمة حزبية. وعلى الاعتراف" بأن كل كوادرات الحزب يجب أن يكونوا منتخبين وقابلين للتنحية. وملزمين بتقديم حساب عن عملهم" (10).

"إن مبدأ المركزية الديمقراطية واستقلال (المنظمات) المحلية يعني بالضبط حرية النقد. بالكامل وفي كل مكان. طالما لا يعيق وحدة عمل محدد [...] (11)

"ليس من حق اللجنة المركزية إطلاقاً أن تشترط على منظمات الحزب تبني قرارها (...). كل أعضاء الحزب مجبرون على النظر إلى المسألة بكل استقلال وبكل روح نقدية وعلى تأييد القرار الذي يحل المشكلة في رأيهم. بالصورة الأصح في إطار قرارات المؤتمر التوحيدي (...). إن منظمة الحزب تقوم الآن على قاعدة ديمقراطية. وهذا يعني أن كل أعضاء الحزب ينتخبون المسؤولين. وأعضاء اللجان. الخ. (...) أن كل أعضاء الحزب يحددون ما يجب أن يكون التكتيك (...) (12).

لم يرفع لينين هذه الأطروحات يوماً إلى مستوى النظرية العامة في التنظيم. الصالحة لكل البلدان (بما فيها روسيا) وفي كل زمان. بغض النظر عن العصر والشروط الملموسة التي ينمو فيها صراع الطبقات.

كانت التصورات البديل التي اقترحها المناشقة آنذاك تبخس تقدير ما تشكله اللاشعرية من إكراه. والتهديد الذي كانت تمثله بالنسبة لاستمرار النشاط الطبقي. ودور المركزية السياسية -الضرورية لكن الصعبة- لتجربة النضالات المتشذرة. وبوجه خاص الطابع الأساسي للنضال من أجل الاستقلال السياسي. وفي ما بعد لأجل هيمنة الطبقة العاملة في الثورة. إن الانشقاق إبان المؤتمر الثاني للحزب عام 1903. كمان ينطوي مذاك بصورة كامنة على بذور التمايز السياسي المركزي اللاحق بين البلاشفة والمناشقة بخصوص دور البرجوازية الروسية في الثورة (بات الانقسام بين هذين التيارين داخل حزب العمال الاشتراكي-الديمقراطي الروسي رسمياً عام 1912) (6).

حتى في كراس 1902. ما العمل؟ نجد مقاطع ذات منحى "لوكسمبورغي-تروتسكي" بشكل واضح:

"ليس من معنى لتظيم الثوريين المحترفين إلا في علاقة بالطبقة الثورية حقاً. التي تنخرط في القتال بشكل عفوي" (...)

"من المرجح أن الجميع يوافقون على أن مبدأ الديمقراطية الواسعة. يستتبع شرطين صريحين: أولاً. العلنية الكاملة وثانياً. الانتخابات لكل الوظائف []. سوف نسمى الحزب الاشتراكي الألماني منظمة ديمقراطية. لأن كل شيء يتم فيه علانية. حتى جلسات مؤتمر الحزب (7) []."

بعد تجربة ثورة 1909 المهمة جداً. وسّع لينين لهذا التصور أكثر أيضاً. بصورة ناقدة للذات جزئياً. عبر استخدام صورة "القضيب الملوي جداً في اتجاه ما". بما أن خصومه "لواوا القضيب" -أي المحاجة- "في اتجاه ما". كان عليه أن يلويه في الاتجاه الآخر لإعادة التوازن:

"من 1903 إلى 1907 [...] على الرغم من الانشقاق. أعطت الاشتراكية-الديمقراطية الجمهور أوسع المعلومات حول وضعها الداخلي (محاضر المؤتمر الثاني المشترك. والمؤتمر الثالث البلشفي. والمؤتمر الرابع أو مؤتمر استوكهولم المشترك). على الرغم من

32.4% من عائلات الفلاحين الفقراء تملك أقل من 7 دسياتين.

(يتعلق الأمر في كل مرة بالملكية بالعائلة لا بالفرد من السكان).

وهو يستخلص أنه كان هناك في روسيا كمعدل في الفترة ما بين 1897 و1905.

بين 0.8 و1.2% من المزارعين الرأسماليين (من 5.1 إلى 7.6% من السكان الفلاحين).

بين 8 و6% من العمال من دون أرض (من 3 إلى 4% من السكان الفلاحين)

بين 2.6 و3.9% من الفلاحين الأغنياء

بين 12.4 و10.7% من الفلاحين الموسرين

51.8% فلاحون متوسطون

بين 24.2 و26.4% من الفلاحين الفقراء (2).

كان الفقراء يمثلون إداً ثلث سكان الأرياف.

كانت الهمجية والبؤس اللذان كان الفلاحون يعيشون فيهما في ظل القيصرية يعبران عن نفسيهما بوضوح في مستوى استهلاكهم. فعلى أساس الشخص الواحد. كانت المزرعة الفلاحية المتوسطة تخصص. خارج نفقات الغذاء والسكن. 5.5 روبل في العام للبس. و2.5 روبل للحاجات الثقافية-الروحية. و1.4 روبل لحاجات مادية أخرى. كانت عائلتان فلاحيتان مؤلفة كل منهما من ستة أشخاص. أي ما مجموعه 12 نسمة في الريف القيصري. تستهلكان القدر نفسه الذي يستهلكه عامل أمريكي واحد (من دون عائلته) حوالي عام 1905. أي فرق من 1 إلى 12 (وفي تلك الفترة. كان استهلاك عامل أمريكي. بالطبع. أدنى بكثير مما هو اليوم).

إن تصدير روسيا الكثيف للقمح. وكان مصدراً رئيساً لعملائها الصعبة قبل تصدير النفط. لم يكن ممكناً إلا لأن ضغط الربيع والضريبة كان يجبر الفلاح على بيع القمح حتى إذا لم يكن يأكل حين يجوع. ولو كان أمكن القمح أن يغطي كلياً حاجات الاستهلاك لديه. لكانت روسيا أصبحت بلداً مستورداً لا مصدراً له.

في الكتاب حول روسيا الذي بات كلاسيكيا. والذي كتبه المحافظ جداً السير دونالد ماكنزي والاس. مثل الاستبليشمانت البريطانية لواقع حث إغرائها. يلخص هذا الأخير تدهور وضع الفلاحين الروس بالمعطيات الآتية: إن متأخرات الضرائب السنوية (أي مقدار الضرائب غير المدفوعة) ارتفع من 0.9 روبل بالشخص الذكر عام 1882 إلى 6 روبل عام 1893. فإلى 22 روبلاً عام 1899 في المقاطعات السبع لمنطقة الأرض السوداء (3).

البؤس المدني

لم يكن البؤس العمالي والمديني أقل حدة. وتكفي الإشارة في هذا الصدد إلى شروط السكن. إن أناتول كوب يستند إلى المؤلف السوفييتي ج. بوزيس ليؤكد انه في الـ131 مدينة القائمة على الأرض التي شكلت الجمهورية الاشتراكية الاتحادية لسوفييتات روسيا (ج.ا.ا.س.ر):

”كان 9% فقط من البيوت موصولاً بشبكة [مجارير]. ومن أصل 195 ألف بيت. الموجودة في 213 مدينة في ج.ا.ا.س.ر. والتي كانت لها قبل الثورة شبكة توزيع للماء. 12.5% منها فقط كانت موصولة بالشبكة” (4).

في عام 1912. كان عدد الأشخاص بالشقة 8.7 في موسكو. وحوالي 8 في بتروغراد. مقابل 3.6 في برلين. و4.2 في فيينا. و2.7 في باريس (5).

كان يوم العمل المتوسط يبلغ معدل عشر ساعات. من دون حساب ساعات إضافية عديدة. وبحسب المؤرخ بروكوبوفيتش. كانت بتروغراد تحتاج عام 1909 إلى ثلاثة أضعاف الأجر السنوي المتوسط لإعالة أسرة بشكل محتشم. كان البؤس العمالي كبيراً جداً إذا. ففي عام 1908. كانت أسرة عمالية تنفق 48% من مداخيلها على الغذاء (غير الكافي في كل حال). و21% على السكن (البائس عموماً). و15% على الألبسة. ولتلبية الحاجات الأخرى وقبل كل شيء العناية الطبية والتعليم. حتى البدائي. لم يكن بقي إلا بالكاد 15% من الأجر الهزيل.

كان بوكروفسكي يقدّر أنه بين 1892 و1902. انخفض الأجر الفعلي للعامل الروسي بنسبة 20% (6). وفي طبعة لاحقة موسعة لمؤلفه. يصنف هذا المؤرخ الشيوعي. الذي امتدحه لينين كثيراً. شروط الحياة البائسة للعمال الروس في نهاية القرن التاسع عشر:

وغير حساس حيالها. لقد كان يعبد الحقول. والمروج. والأنهار. والجبال. والبحر والمحيط” (2).

إن الأهمية المحدودة بالأحرى التي كان يوليها لينين لدوره الشخصي إنما يكشفها رد فعله حين اقترحت اللجنة المركزية البدء بنشر أعماله الكاملة:

”لماذا؟ هذا غير نافع إطلاقاً. فمنذ ثلاثين عاماً. تمت كتابة كل ما كان يمكن تخيله. ولا جدوى من نشر كل ذلك” (3).

إن أسطورة لينين متهمكم وعديم الذمة في ”الصراع لأجل السلطة” تستند بوجه خاص إلى افتراء سافل كفاية تمثل بالتأكيد القائل إنه قبل بـ”الذهب الألماني” عام 1917 لتمويل دعاوة البلشفية. لقد شكل ذلك الافتراء قاعدة للاضطهادات - ضد البلاشفة غداة أيام تموز/يوليو 1917 الثورية.

وفي ما يشكّل. فضلاً عن ذلك. إحدى أفضل سير لينين. يبرهن رونالد و. كلارك عن لا أدوية في هذا الصدد. حين يتوصل تقريبا على التلميح بأنه لا دخان من دون نار. لا بل روى -من دون أن يستبعد بالكامل- تأكيد موظف في وزارة الخارجية الألمانية. أن 50 مليون مارك ذهبي ”جرى توظيفها” في الحركة البلشفية (4).

لكن رونالد كلارك ذاته يورد بشكل عابر البرهان الأكثر دمغاً على الطابع غير القائم على أساس لهذا الافتراء: كانتا البرافدا. جريدة البلاشفة الرئيسية. بحاجة دائمة إلى المال. وقد أطلقت نداءات ضاغطة ومتواصلة لجمع عشرات ألوف الروبلات (5). فكيف يمكن حركة تلقت عشرات الملايين من الماركات الذهبية أن تكون معدمة إلى هذا الحد؟

ما العمل؟ والسنوات 1905-1907

ثم إنه يستحيل الاستناد إلى كرا ما العمل؟ وحده -المكتوب عام 1902! للحكم على تصورات لينين التنظيمية. لا يمكن انتزاع الأطروحات التي يدافع عنها هذا الكتاب. مع بعض المبالغة بلا ريب. التي اعترف بوجودها لينين ذاته في ما بعد. من سياقها التاريخي المحدد. الخاص بحزب صغير يعمل في السرية الأكثر دقة.

الفصل السادس: مفاهيم لينين التنظيمية

هل فتحت تصورات لينين التنظيمية الطريق أمام تجاوزات ثورة أكتوبر والديكتاتورية الستالينية؟

إن إحدى الأطروحات، التي يشيع تقديمها من جانب نقاد البلشفية، تقول إن التجاوزات التي طرأت منذ عام 1917 - حل الجمعية التأسيسية، الإرهاب، إطالة مدة شيوعية الحرب- ناجمة في التحليل الأخير من تصورات لينين التنظيمية. يمكن أن نلخص هكذا التصورات التي ينسبها هؤلاء المؤلفون إلى لينين، ويعتبرونها مصادر الشر الأخيرة: الثورات "يصنعها" الحزب الثوري، وليس الجماهير. هذا الحزب ينبغي أن يتكوّن من زمرة ضئيلة العدد من الثوريين المحترفين مكرزة إلى أبعد الحدود. إنه، بذلك، متحرر إلى حد بعيد من رقابة الطبقة العاملة، وهذه الطبقة عاجزة عن الارتفاع إلى مستوى العمل السياسي الثوري. ناهيك عن بلوغ الوعي السياسي الثوري (1).

إن كتابا آخرين، كلويس فيشر، يقومون بخطوة إضافية ويقولون إن تصورات لينين التنظيمية هذه، كما جرى التعبير عنها بصورة كلاسيكية في كراس ما العمل؟ أوحث بها ملامح بسيكولوجية قليلة الدماثة للشخص المذكور: حقد أعمى على القيصرية والطبقات المالكة، التعطش إلى الثأر بسبب إعدام الأوتوقراطية لشقيقه، الاقتناع بأن العنف، والإرهاب، و"إبادة العدو"، تلعب دورا أساسيا في كل ثورة.

كل هذه التأكيدات، أيا تكن تنويعاتها، هي في أحسن الأحوال رؤى وحيدة الجانب للواقع التاريخي، ولكتابات لينين والأعمال التي ألهمها أو قادها.

لينين والسلطة

قبل كل شيء، إن صورة لينين متوترا، مثل مهووس أحادي، نحو الاستيلاء على السلطة الشخصية المطلقة، لا تتناسب إطلاقا مع صورة الشخص كما تبدو من الشهادات المتعددة لأولئك اللواتي والذين عاشروه، ويلاحظ في هذا الصدد نيكولا فيالتينوف، النقدي جدا حيال الزعيم البلشفي، أنه:

"خطأ خطير جدا، ويقترفه كثيرون، لا بل الجميع تقريبا، أن يتم اعتبار لينين كرجل حديدي، لا قلب له، ولا ينتج غير قرارات سياسية، غير مبال إطلاقا بجماليات الطبيعة،

63.7% من العمال كانوا أميين [...] وفي فبارك موسكو، كانت شغيلة النسيج مجبرين دائما تقريبا على النوم على نولهم. كانت كل العائلة تنام في الواقع على تلك الأنوال التي طولها متران ونصف وعرضها متران. كان عليهم أن ينظفوا الغرف الوسخة بثيابهم، وكان أرباب العمل يقولون للطبيب إن الشغيلة "يحبون" العيش هكذا." [...]

"إن الطبيب الذي حصلنا منه على [هذه] المعلومات عن عمال النسيج أصبح مفتشا، ولنقل عابرين إن هذا الواقع الجديد غيّر موقفه فورا. فبعد عامين، وصف السكن العمالي لغالبية منشآت حكومة فلاديمير على الشكل التالي: تلوث، هواء رديء، عائلتان في غرفة لها أو نافذتان" [...]

"كان العامل [الروسي] يتغذى آنذاك بشكل اقل جودة من [الألماني] بعد الحرب الامبريالية، وسط الحرب الأهلية والحصار. كان غذاؤه المعتاد يتكون من اللحم المملح، والسّمك المدخن، اللحم الطازج الوحيد المتوفر كان جلد الذبيحة وأكارعها وبطنها [...] ضمن شروط الحياة والسكن هذه، كانت الأمراض تصيب العمال. وفي ورش النسيج في موسكو، كانت 134 امرأة من أصل ألف مصابة بالسل. فضلا عن ذلك، كان هناك "وباء" يسميه الأطباء "رضيا" و"بروليتاريا" بالكامل: إنه الجروح [...]. وفي منشأة نسيج [كبرى]، لم تكن تبقى، في مهلة ثلاث سنوات، غير عاملة من أصل ثلاث لم تصب بجروح" (7).

كان معدل موت الأطفال في الأحياء العمالية بشكل أساسي في بتروغراد يصل على الأقل إلى ضعف معدل موتهم في الأحياء "المختلطة". وحوالي ربع الأطفال المولودين في العاصمة كانوا يموتون قبل بلوغهم العام (8).

إذا اعتبرنا أن هذه الأوصاف ذات المصادر الماركسية مبالغ بها، هاكم حكم مؤرخ برجوازي معتدل جدا:

"غالباً ما يؤكدون أن أكواخ بريطانيا بلغت درجة من اللإنسانية لا يمكن أي مجتمع آخر أن يضاهاها. وهذا صحيح بمقدار ما كان البؤس الأشد في انكلترا، وسكوتلندا، يتناسب مع الشرائح الاجتماعية الدنيا [...] لكن كل العمال البريطانيين لم يكونوا ينتمون إلى الشرائح الدنيا، في حين أن تلك كانت حالة كل الشغيلة الروس تقريبا [...] لم يكن ثمة تدرج في روسيا: كان العمال عبيداً ماجورين بالمعنى الأدق ولم تكن أجورهم تسمح بإعالة أسرة" (9).

لقد كتب الأستاذ الجامعي من أصل روسي، نيوكلاس ف. ريبازونوفسكي، الذي يروج استخدام مؤلفاته في الجامعات الغربية ما يلي:

[...]”رغم تشريع العمل، ورغم واقع أن الأجور زادت، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى (وهذا ما يصر المؤرخون السوفييتيون على نفيه بحدّة). كان العمال الروس يبقون يائسين على وجه العموم. إن بروليتاري روسيا الإمبراطورية، الذين كانوا يحصلون على أجور سيئة، ويسكنون في أكواخ مزدحمة بصورة لا يمكن تصورها، شبه أميين ومحرومين من أي غنم، كانوا يقدمون مثلاً ممتازاً على تلك اليد العاملة الفقيرة والمستغلة، المهيّزة لمراحل الأولى من الرأسمالية، والتي وصفها ماركس بالكثير من القوة في رأس المال” (10).

ويورد الأستاذان الانكليزيان كوشان وأبراهام، فضلاً عن ذلك واقعاً يكاد يمكن تصديقه:

[...]”كان توجيه نشره ديليانوف، وزير التربية عام 1887، يحظر دخول المدارس الثانوية على الأولاد من الشرائح الاجتماعية الدنيا: [...] إن أولاد الخدم، والطباخين، والكواءات، وصغار التجار وأشخاصا من النوع نفسه، ما عدا ربما أولئك الذين يكونون موهوبين بشكل استثنائي، لا ينبغي، بالتأكيد، سحبهم من البيئة الاجتماعية التي ينتمون إليها” (11).

كان فرط استغلال العاملات خطيراً بوجه خاص. ففي عام 1914، كانت أجور اليد العاملة النسائية توازي نصف قيمة أجور اليد العاملة الذكورية. وفي عام 1916، كانت قد هبطت إلى أقل من 40% (12).

هل يمكن أن نجادل بصورة جدية في أن ثورة أكتوبر قامت بعمل مفيد وصحي بأن أزالت هذه الخمازي جذرياً؟

الدولة القيصرية

كان لدور الدولة القيصرية القائم على الاضطهاد بعد مالي دقيق: 80% من نفقات الموازنة كانت مخصصة للجيش وجهاز القمع. هذا البزل الطفيلي من الدخل القومي كان يتم بشكل أساسي على حساب الفلاحين (لكن أيضاً على حساب العمال. عبر الضريبة غير المباشرة). كان تمويل الصناعة يتم قبل كل شيء بفضل تميمات أجنبية.

طبيعة كل من القوى الاجتماعية المتواجدة (و”منطق” كل منها) هي الحاسمة.

والحال أن المعلومات في هذا الصدد، التي بحوزتنا حالياً، لا تتيح استخلاص نتائج نهائية. فبحسب البعض، ولاسيما الفوضويين، كان بحارة كرونشطاغ عمالاً بشكل أساسي، كما الحال بخصوص بحارة 1917-1918. وكان تمردهم يشكل امتداداً للاحتجاجات العمالية في بتروغراد وأماكن أخرى. وما كان مطروحاً إذاً إنما هو مشكلة الديمقراطية السوفيتية، البروليتارية، وبحسب الآخرين، ولاسيما تروتسكي. كان بحارة 1917-1918 البروليتاريون قد زالوا إلى حد بعيد من القلعة. كانوا قد سقطوا في الجبهات، أو امتصهم الجيش الأحمر وجهاز الدولة، الخ. وكان بحارة 1921 أبناء الفلاحين المتوسطين والأغنياء. وكان تمردهم يشكل امتداداً لرفض الفلاحين ”شيوعية الحرب” ومصادرات القمح. كان ينبغي التفاوض معهم، لكن عدم الخضوع لدينامية اجتماعية كان يمكن أن تعزز التهديد المضاد للثورة الذي تتعرض له بتروغراد، وهو تهديد محلي وعالمي، لأن ذوبان الجليد كان يمكن أن يفتح ميناء كرونشطاغ أمام أسطول البلطيق الأبيض.

(8) ل.كريتسمان، Die Heroische Periode Der Grossen Russischen Revolution، فيينا-برلين، 1929.

(9) حذر ماركس والجلس من ”شيوعية البؤس” البدائية هذه، التي لا تفعل غير تعميم النقص والقلّة، وتفضي حتماً إلى انبعاث كل ”الخراء القديم”.

(10) لينين، خطاب في جلسة سوفيت بتروغراد للنواب والجنود ومندوبي الجبهة في 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1917، الأعمال الكاملة، الجزء 26 ص 307.

(11) أر.وليامز، مرجع مذكور، ص 112 وما بعدها.

(12) المرجع ذاته، ص 126.

(13) موريزيه، مرجع مذكور، ص 429.

(14) ج-ليغيت، The Cheka: Lenin'ss Politacal police، أوكفورد 1981، ص 171.

لم تكن الصناعة الروسية قادرة على المنافسة في السوق العالمية. إن ضيق السوق القومية، بفعل فقر غالبية السكان اللاحقة، لم يكن يمكنه هو الآخر أن يضمن أسواقاً كافية. فضلاً عن ذلك، كانت المنتجات المستوردة أرخص من منتجات الصناعة الروسية، وذات نوعية أفضل. من هنا كانت تنتج سياسة حماية مبالغ بها ونزعة إلى التوسع العسكري الثابت باتجاه الشرق والجنوب الشرقي. كانت بلدان كتركيا، وإيران، وأفغانستان، والصين، وكوريا، مجبرة بالتهديد أو بقوة السلاح على شراء منتجات روسية. لقد جرى الكلام في هذا الصدد، بحق، على "رأسمالية (امبريالية) على الطريقة القوقازية". وانتهت الأمور بشكل سيئ مع الحرب الروسية-اليابانية، في تزوشيماء، حين انهزمت الجيوش الغربية.

لكن الجانب الأكثر اضطهاداً والأشد قمعاً في القيصرية كان يعبر عن نفسه في مجمل المؤسسات (أو غياب المؤسسات) التي شكلتها الأوتوقراطية وما كانت تمثله بالنسبة لشعوب الإمبراطورية: غياب الحقوق والحريات الديمقراطية، العسف البيروقراطي الأقصى، الاضطهاد المتفاقم:

"مع ظهور انتليجنسيا قومية في كل شعوب الأقليات تقريباً، كان على الحكومة إما أن تعترف بالحاجة إلى حكم ذاتي محلي ما في المناطق الحدودية سهلة المكسر، أو أن تحاول اكتساب هذه القوى الجديدة لمعتقداتها الخاصة بها. وفي الأخير، بدأت سياسة روسية نشيطة جداً، ففي أوكرانيا، وروسيا البيضاء، وليتوانيا وبولونيا، جرى الحد من تعليم اللغة المحلية في المدارس أو حظره، وفرض استخدام الروسية. وفي المقاطعات البلطيقية [...]، وحفزت الحكومة تمييزاً مشابهاً ضد السكان الألمان." [...]

"من المرجح أنه كان قد جاء الآن دور اليهود الروس ليعانوا أسوأ أنواع العذاب. حصلت مذابح رهيبه [يبدو أن ثلث اليهود هلكوا، وثلثهم هاجروا، وثلثهم جرى استيعابهم، وفقاً لبوبيد ونوستيف] الممثل العلماني لكنيسة الأورثوذكسية وأحد أمثلة قصة دوستويفسكي، المحق الكبير." [...]

"إن النصر الظاهري على النزعة القومية الإسلامية في ما وراء القوقاز لم يفعل غير إعطاء ثقة كافية لانتليجنسيا جورجيا وأرمينيا كي تنخرط في التحريض الثوري. وفي آسيا، لم يكن يمكن الدعم المتزايد الذي أعطته الحكومة لحركة تبشير عدواني إلا أن يغيظ التقليديين المسلمين ضمن السكان المحليين [...]. كانت آسيا الوسطى والشرق الأقصى أرضاً مختارة لمغامرين إمبراليين روس، ومستفيدين مشبوهين وحكام مزيفين [...]" (13).

(1) ل. تروتسكي، الثورة المغدورة، باريس 1963، ص 75.

(2) الأمية الرابعة، L'agonie du capitalisme et les tâches de la 4eme Internationale, programme de transition، باريس، 1983، ص 56.

(3) ر. لوكسمبورغ، La Révolution Russie، باريس، 1964، ص 65. كانت روزا لوكسمبورغ قيادة ثورية ومنظرة ماركسية بولونية، نشيطة جداً في الحركة العمالية الألمانية، وقد اغتالها الرجعية عام 1919.

(4) المرجع ذاته، ص 67-69. كان كاوتسكي المنظر والقيادي الأكثر اعترافاً به على صعيد الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية والأمية الثانية، وهو سوف يصبح إصلاحياً.

(5) "شيوعية الحرب" هي التسمية المعطاة للتوجه السياسي-الاقتصادي المستخدم خلال فترة الحرب الأهلية (1918-1920)، وكانت تتميز بروح المساواة فيها، وبدولنة جذرية وتدابير استثنائية، كالصادرات القسرية للأغذية لدى الفلاحين.

(6) دافع تروتسكي، بعد فشل اقتراحه المبكر باعتماد النيب، ولبعض الوقت، عن "عسكرة" الاقتصاد كإقتراح بديل. أما السياسة الاقتصادية الجديدة، أو "النيب"، فوضعت في الممارسة عام 1920. لقد مثلت قطيعة عميقة مع اقتصاد الأوامر لفترة شيوعية الحرب، عبر تحريرها السوق والإنتاج الفلاحي، وتشجيعها نوعاً من نمو الصناعة الصغيرة الخاصة، وعرضها استقبال توظيفات أجنبية.

(7) روي ميديفيد، La Révolution d'octobre، باريس، 1978، ص 210. في آذار/مارس 1921، تمردت حامية كرونشطاظ، وهي ميناء على بحر البلطيق، وبما أن المفاوضات مع السلطة منيت بالفشل، فلقد سحق الجيش الأحمر العصيان. نحن لا نسعى لأن نحلل، في هذا البحث، المشكلة التي طرحها تمرد كرونشطاظ وقمع السلطة السوفييتية له. ذلك أننا نرى، أخدين بالحسبان أن الحرب الأهلية لم تكن انتهت بعد، أننا نإزاء مسألة حكم سياسي، تكتيكي، لا مسألة مبدأ. إن صعوبة الجدل، في هذا الموضوع، تكمن في واقع أن معظم من انتقدوا قرار البلاشفة يسندون حكمهم بشكل أساسي إلى تقديرات سياسية بصورة خاصة: طبيعة المطالب، طبيعة القوى السياسية المتواجدة، الخ. لكننا نرى أنه، في حالة حرب أهلية، تكون

هل ثمة ما يدهش في أنه، خلال ثورة شباط/فبراير 1917، أطلق الفلاحون والعمال والقوميات المضطهدة صرخة إجماع: كفى! كفى! كفى! الأرض، وحق تقرير المصير، ويوم العمل من ثماني ساعات والرقابة العمالية، حالاً! لكن الحكومة المؤقتة راوغت، وترددت، ومددت المهل، وأجلت حل هذه المسألة حتى ما بعد أعمال الجمعية التأسيسية، التي جرى تأخير الانتخابات الخاصة بها بلا انقطاع.

هل ثمة ما يدهش في أن الجماهير أخذت، ضمن هذه الشروط، مصيرها بيديها، أكثر فأكثر، وسعت لأن تحل بنفسها مشكلاتها الحيوية، وتعرفت إلى نفسها في السياسة البلشفية وسلطة السوفييتات، في حين أن هذه الأخيرة حلتها بين ليلة وضحاها؟

إحالات

(*) أوجياس ملك أسطوري في اليونان في اليونان القديمة نظف هيراقليس زرائبه الشاسعة بتمرير نهر ألفي فيها (م)

(1) كل هذه المعطيات نجدها في كاب تروتسكي، 1905، باريس 1969، ص 34 وما يليها.

(2) ت.شانين، Russia as a 'developing society' الجزء الأول، لندن 1985، ص 98، 101.

(3) د.ماكنزي والاس، Russia on the Eve of War and Revolution، إصدار سيريل أ.بلاك، نيويورك، 1961، ص 346.

(4) أ.كوب، Changer la vie, changer la ville، باريس، 1975، ص 261.

(5) ج.ايمس هـ.بايكر، St. Petersburg and Moscow on the eve of the revolution، ص 50، دانييل هـ.كايزر، The Workers' Revolution in Russia, 1917 - The view from below، كامبريدج يونيفرسيتي برس، 1987.

(6) م. بوكروفسكي، Geschichlelands، هيرشفيلد، لا بيزيغ 1929، ص 275.

إن أرشيفات التشيكا، التي بدأت تنتشر بفضل الغلاسنوست (سياسة "الشفافية" أيام غروباتشوف)، تبين إلى حد بعيد أن الدودة كانت في الثمرة منذ البدء. وذلك على الرغم من الشرف الشخصي لفيليكس دزيرجنسكي، أول قيادي للتشيكا، الذي لا يشتبه أحد بأنه كانت لديه نوايا قذرة. تكفي الإشارة على واقع أن أعضاء التشيكا ومخبريها ضمنوا الحصول على علاوة (حصّة من "الغنيمة") مقابل كل مورد إثراء يصادر لدى "مضارب" أو مسؤول عن "جرائم اقتصادية". ليس من شك في وجود دينامية مفسدة.

والأمر نفسه يقال عن اتجاه التشيكا للإفلات من أي رقابة. لقد تأكدت تلك الدينامية الخطرة مبكراً جداً. وثمة حادثة توضحها تماماً: كان لينين يكن أكبر التقدير وأعظم الصداقة للقيادي المنشفي اليساري مارتوف. وقد استدعاه ذات يوم إلى الكرملين، وسلمه جواز سفر مزوراً وقال له: "غادر البلاد فوراً، أو ستلقي التشيكا القبض عليك في غضون أيام قليلة، ولن يكون في وسعي منعها من ذلك."

مع ذلك، يسلم ج.ليغيت، الرجعي المعادي جداً للنظام البلشفي، بأن هذا الاستغلال لم يكن إلا ظرفياً في البدء:

"في التعارض المحتوم بين عنف التشيكا التعسفي ومنظومة الشرعية السوفيتية التي بلورتها مفوضية الشعب للعدل، أحرزت التشيكا الغلبة في كل مرة كان فيها النظام مهدداً. وحين كانت الأزيمة تخف، كان ذلك يتم لصالح المفوضية" (14).

كان لينين بالذات يؤيد بحزم قيام دولة قانون وضرورة خطو خطوات حاسمة في هذا الاتجاه. وفي نزاع تعارض فيه، عام 1921، كل من دزرجنسكي وكامينيف بخصوص إصلاح مصالح الشرطة السياسية بعد نهاية الحرب الأهلية، دعم لينين كامينيف الذي كان يقترح الحد من صلاحية التشيكا بحيث تقتصر على مشكلات التجسس، والاعتداءات السياسية، وحماية سكك الحديد ومستودعات المؤن. كان يجب أن يكون كل نشاط قمعي آخر من اختصاص مفوضية الشعب للعدل.

ينبغي أن نلاحظ أيضاً أن التشيكا لم تكن إطلاقاً صنعة الحزب البلشفي أو لينين. إن الاشتراكيين-الثوريين اليساريين هم الذين لعبوا الدور الأساسي في خلقها. لكن يبقى صحيحاً مع ذلك أن الاتجاه للاستقلال، وللتخلص أكثر فأكثر من الرقابة، كان موجوداً منذ بدايات التشيكا، ويستخدم فيكتور سرج بهذا الخصوص تعبير "الانحطاط المهني". لذا نخلص إلى أن خلق التشيكا كان خطأ بلا ريب.

(7) م. بوكروفسكي، Russische Geschichte، بوشنر جيلد غوتنبرغ، برلين 1920، ص 249-252.

(8) س. أ. سميث، مرجع مذكور، ص 13.

(9) إدوارد كرانكشا و. The Shadow of the Winter Palace، هارموندسورث، 1978، ص 344.

(10) ن. زيازانوفسكي، Histoire de la Russie، باريس 1987، ص 463-464.

(11) ليونيل كوتشان وريتشارد إبراهيم، The Making of Modern Russia، هارموندسورث، 1983، ص 223.

(12) س. أ. سميث، مرجع مذكور، ص 47-48.

(13) كوتشان-أبراهام، مرجع مذكور، ص 223-224، 196-197.

ويقدّره موريزيه بأكثر قليلاً من عشرة آلاف. وبعد هزيمة الجيوش البيضاء لكل من دنيكين وكولشاك، ألغت الحكومة السوفيتية عقوبة الإعدام خلال أشهر عدة. ولم تتم إعادة العمل بها إلا بعد الهجوم البولوني على أوكرانيا في أيار/مايو 1920.

كان الجو في روسيا السوفيتية بعيداً جداً عن ذلك الخوف الشامل الذي يصفه مؤرخون كثيرون. ويمكن إدراك ذلك لدى قراءة الرواية التي يقدمها موريزيه، كشاهد عيان، لمحاكمة ضابط أبيض كبير، هو غالكين، أمام محكمة موسكو الثورية في 14/تموز/يوليو 1921:

"لا أظن أنني رأيت يوماً جمهوراً أو قضاة أكثر تعاطفاً مع المتهم بما في ذلك اليوم. إن الأربعمائة عامل أو جندي الذين كانوا يتدافعون في تلك القاعة، والقضاة الثلاثة والمدعي العام، وكلهم في ريعان الشباب، كانوا يتطلعون جميعهم بنوع من الصداقة إلى ذلك الرجل القصير البالغ 35 عاماً، المرتدي ثياباً رثة، والذي كان يحرسه نائب ضابط طيب القلب، وفقاً للقاعدة، وهو بمسك بمسدس. ولم يكن هناك أي حاجز بينهم وبينه. كان أربعة جنود مسلحون، مهتمون بوجه خاص بالمناقشات، يذرعون بشكل غامض المساحة الطليقة التي كان يملأها مقعد البستان المخصص للمتهم، وطاولته المدافع (عنه) وطاولتنا."

"بدلاً من جلسة مخيفة لمحاكمة ثورية، كان يتبادر إلى الذهن أننا إزاء سجال حماسي بين أناس مختلفين بصدد حل مشكلة ضميرية" (13).

صدر حكم خفيف على غالكين. ثم سرعان ما حصل على العفو. مع أنه حمل السلاح ضد سلطة السوفييتات، لكنه كان يؤكد كرهه للطغاة المناهضين للثورة، بعد تجربته إياهم، وقد صدقته المحكمة مجرد قوله ذلك.

التشيكا

إن موضوع التشيكا مختلف تماماً عن المسألة التي تحدثنا عنها للتو: تدابير إرهابية منتظمة خلال حرب أهلية قاسية. إنها تستتبع خلق مؤسسة، أو جهاز، مع الاتجاه الحتمي لكل مؤسسة ولكل جهاز لأن يصبح دائماً، ويتنصل من كل رقابة.

يمكن إطلاق النار على معذب فاشي بعد محاكمة علنية، وإن مختصرة. لا يمكن إخضاع شرطة سياسة سرية لرقابة علنية.

الفصل الرابع ، الرهان السياسي

إن إدانة ثورة أكتوبر تقوم، في الغرب كما في الشرق، وعلى وجه العموم، على فكرة أن "الانقلاب" البلشفي حال دون مأسسة الديمقراطية وتوطيدها، وأنه أفضل انطلافاً من ذلك إلى "نظام توتاليتاري". وبحسب هذا الزعم، كانت الخيار في أكتوبر 1917، كما في الأسابيع والأشهر التالية، بين الديمقراطية والديكتاتورية.

يتعلق الأمر مرة أخرى بمخاتلة وتزوير تاريخيين فاقعين. ففي الواقع كان تقاطب القوى الاجتماعية والسياسية قد بلغ الذروة في روسيا. وقد كان ذلك التقاطب قد بلغ حداً لم يترك معه أي حيز لتجربة ديمقراطية برجوازية مأسسة، لا بل طويلة الأمد. منذ أيام تموز/يوليو 1917، المطبوعة بتجذر المطالب الشعبية، كانت الأحزاب البرجوازية - والزمرة العسكرية التي كانت مرتبطة بها- قد تبنت مساراً قمعياً بشكل واضح.

لم يسقط انقلاب كورنيلوف العسكري في آب/أغسطس 1917 من السماء. كان يعكس تفاقم الصراعات الاجتماعية-السياسية، ولقد زاد فشله من حدة التعطش لرد مضاة للثورة من جانب الطبقات المالكة وخدامها. وقد بدا ذلك مباشرة عشية ثورة أكتوبر وغداتها.

لقد أخذ حقد الطبقات المالكة الروسية حجماً نادراً ما عرفه [حقد طبقي]. ويمكن مقارنته مثلاً بحقد البرجوازية الفرنسية خلال كومونة باريس، عام 1871، وحقد الرجعية الإسبانية خلال صيف عام 1936.

يشير جاك سادول بفظنة إلى أنها:

[...] "تريد إرساء ناظم استبدادي يُغرق الثورة في الدم، ويذبح اليهود، والبلاشفة، والاشتراكيين والكاديت، وينفيهم خِلَطَ مِلَط" (1).

الرجعية الروسية والامبريالية الألمانية

كان ذلك الحقد الطبقي عميقاً إلى حد أنه، في مهلة أشهر قليلة، بات النبلاء والملكيون "الوطنيون"، الذين سبق أن استشاطوا غيظاً بسبب قلة حماس الجنود لهجوم كيرنسكي على جبهة غاليسيا البولونية في حزيران/يونيو 1917، عبروا عن

بيد أن الأمور اتخذت المنحى التالي: تصرف المناهضون للثورة بتهكم وانعدام ذمة كلي، على الرغم من شهامة البلاشفة بادئ ذي بدء. فالجنرالان كراسنوف وكاليدين وغيرهما، وتلامذة الضباط الذين تم إيقافهم خلال ثورة أكتوبر، أطلق سراحهم مقابل الوعد بأن يمتنعوا عن أي عمل مناهض للحكم. ولقد حنثوا فوراً بالوعد المعطى، وحملوا السلاح وتسببوا بمقتل آلاف العمال.

لقد اقترب الشعب هذه الأخطاء مرة، مرتين، ثم رد بقساوة، فهل يجب أن يدهشنا ذلك؟

بين الأعمال المتهكمة بوجه خاص لـ "ضحايا الإرهاب" لاحقاً، يشير أ.ر. وليامز إلى استخدام البيض شاحنات للصليب الأحمر لاجتياز خطوط الجبهة وإيصال ذخائر إلى الجيوش البيضاء (11).

ويروي وليامز أيضاً تجلياً مؤثراً لروح الشهامة لدى الثورة، خلال الاستيلاء على قصر الشتاء. كان تلامذة الضباط قد استسلموا، وكان الجمهور غاضباً، لاسيما بعد اكتشافه غرف التعذيب في أقبية القصر. صرخ أنطونوف-افسينكو، الذي كان يقود فصيل الحرس الأحمر: "الأول بينكم الذي يؤدي أسيراً، سوف أطلق عليه الرصاص". وقد خلص إلى إقناع الحشد:

"أتعرفون إلى أين يقود هذا الجنون؟ حين تقتلون حارساً أبيض أسيراً، فأنتم تقتلون الثورة، لا الثورة المضادة. لقد أعطيت عشرين سنة من حياتي في المنفى وفي السجن لأجل هذه الثورة (...). إنها تعني شيئاً أفضل، تعني الحياة والحرية للجميع. انتم تعطون إذا دمكم وحياتكم للثورة، لكن عليكم أن تعطوها أيضاً شيئاً آخر [...]: عقلكم وفطنتكم. عليكم أن تضعوا التزامكم لأجل الثورة فوق إرضاء أهوائكم. لقد جترأتم فمضيتهم بالثورة إلى النصر. والآن عليكم، باسم شرفكم، أن تعطوا البرهان على شهامتكم. انتم تحبون الثورة، والشيء الوحيد الذي أطلبه منكم هو ألا تقتلوا ما تحبون" (12).

لكن بعد التعرض لأعمال العنف الوحشية من جانب المناهضين للثورة، تغير المناخ. فهل يجب أن يدهشنا ذلك؟

في كل حال، علينا أن نحدد مدى اتساع الإرهاب. فحتى آذار/مارس 1920، جرى إعطاء تقدير رسمي للعدد الإجمالي لضحايا الإرهاب الأحمر الذي بلغ 8620 شخصياً.

لقد كانت النتيجة الوحيدة لرفض التوقيع الفوري لشروط الصلح إتاحة الفرصة أمام الجيش الألماني ليحتل أراضي جديدة شاسعة. وبوجه خاص لينتزع من جمهورية السوفييتات أوكرانيا. وثوراتها الهائلة. كان لينين قد نبأ بذلك يوماً بعد يوم. ونحن نرى مجدداً أن الثمن الذي اضطرت الثورة لدفعه كان باهظاً جداً. لقاء الخطأ المقترف.

الإرهاب الأحمر

إن مسألة الإرهاب - وخلق التشيكا، أو الشرطة السياسية السرية- وثيقا الارتباط بنتائج صلح بريست ليتوفسك. كلاهما عصي على التفسير إلا إذا سلط عليه ضوء تلك الأحداث.

إن مسألة الإرهاب - بغض النظر عن مسألة التجاوزات غير المقبولة التي رافقته- أقل وضوحاً مما يزعم البعض. ويكفي الرجوع إلى تجربة الحرب الأهلية الإسبانية لعام 1936 كي نلاحظ ذلك. ففي ذلك الحين، لم يكن الستاليون وحدهم من طبقوا تدابير إرهاب أحمر واسعة النطاق. بل كذلك الفوضويون والاشتراكيون-الديمقراطيون. سواء في اليمين، أو "الوسط"، أو اليسار. ناهيك عن الكثير من المجموعات العمالية المستقلة وغير المنظمة. لم يكن لديهم خيار.

فحين تكون إزاء عدو عنيد، قاتل، يتولى التعذيب، ولا يتراجع أمام أي شيء، ويحوّل نساء المناضلين وأطفالهم إلى رهائن، ويطلق الرصاص بصورة جماعية على سجناء الحرب والخصوم السياسيين. عليك أن تتخذ بعض التدابير الثأرية للحد من الخسائر. إن العقل السليم هو الذي يأمر بذلك. فليكف القتلة قبل غيرهم، عن ارتكاب أعمال القتل، إذا كانوا يريدون خاشى أن يدفعوا هم أنفسهم ثمناً مرتفعاً لقاء جرائمهم.

يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن لينين كان قد بذل جهوداً كبيرة للامتناع عن اللجوء إلى الإرهاب غداة ثورة أكتوبر. أعلن بوجه خاص:

"ياخذون علينا أننا نبادر إلى القيام بتوقيفات. أجل، هذا أمر يحدث. فلقد أوقفنا اليوم مدير مصرف الدولة. ياخذون علينا ممارسة الإرهاب. لكنه ليس إرهاب الثوريين الفرنسيين الذين كانوا يقطعون بالمقصلة رؤوس أناس منزوعي السلاح. وأمل ألا نصل إلى هذا الحد. أمل ذلك لأننا أقوياء. حين كنا نقبض على أناس، كنا نقول لهم إننا سنطلق سراحهم إذا تعهدوا بعدم التخريب. وهي تعهدات يتم تقديمها" (10).

تمنيهم وصول القوات الألمانية إلى بتروغراد لسحق البؤرة الثورية وأصبحوا موالين للألمان بشراسة (2). وهو ما يشير إليه أيضاً جاك سادول مرة أخرى بقوله:

[...] "منذ وصول [السفير الألماني] ميرباخ إلى موسكو، شعر الملكيون بالاطمئنان والراحة. وكانت الزيارة الأولى التي قام بها السفير الألماني للدوقة الكبرى، امرأة أخ نقولا الثاني. ومذاك رأى ملكيين آخرين جديرين بالذكر. وكان الأمر يتعلق بدهاءة بتحضير عودة قيصرية إلى العرش. كان أنصار الملكية المطلقة مستعدين للقبول بكل شيء من دون حياء، ولاسيما بالحلف العسكري مع ألمانيا واستقلال أوكرانيا" (3).

وقد أكد ذلك كليا عضو في السفارة الألمانية هو الفريهر كارل فون بوتمر:

"منذ بعض الوقت، تنشط الحلقات الملكية كثيراً وتفتح لنا قلبها [...]، وبمناسبة هذه النقاشات، التقيت سلسلة من الشخصيات الهامة التي تتعاطف معنا. إن كلامها يذهب كله في الاتجاه عينه: لا يسعنا شيء من دونكم. عليكم أن تتدخلوا مباشرة، فنتمكن عندئذ من العمل" (4).

القمع المضاد للثورة

لم يكن ذلك الحقد الطبقي يستهدف من جهة أخرى البلاشفة وحلفاءهم، في المقام الأول، بل الجماهير الشعبية بوجه خاص، بدءاً بالفلاحين "المنفلتين من عقالهم" في قراهم، مشترطاً إعادة "النهبين" إلى صوابهم.

كان البرجوازيون والنبلاء، بدعم متردد من الأحزاب الإصلاحية، ولاسيما الاشتراكيين-الثوريين اليمينيين، هم الذين فجروا الحرب الأهلية غداة ثورة أكتوبر. لقد أبدوا قساوة بلا حدود خلال سنوات 1918-1921.

يستشهد الصحفي الأمريكي أ.ر.ويليامز، الذي قام في روسيا خلال الثورة، بالمقطع التالي من مقال المحرر ن.شيفرين للصحيفة اليومية المناهضة للبلاشفة، اليوم، بتاريخ 17 أيلول/سبتمبر 1919:

"كما تعلمون، لقد غير البلاشفة اسم الفيالق القديمة. فقوات موسكو كُتب على ظهور أفرادها الحرفان الأولان "ك.ل.". كارل لينينخت. لقد أسرنا [نحن جيش الشمال الأبيض] أحد هذه الفيالق، ووضعناه أمام المحكمة الحربية. إن المحاكمات أمام الجبهة

البيضاء قصيرة جداً. فكل جندي يتم استجوابه وإذا اعترف بأنه شيوعي، يحكم عليه فوراً بالموت إما شنقاً أو بالرصاص. والحمر يعرفون ذلك تماماً”

”يقف الملازم ك أمام الفيلق الأسير ويعلن: ”من منكم شيوعيون حقيقيون، فلئيدوا شجاعتهم ويتقدموا”. يلي تلك الكلمات صمت ثقيل ومض. يتقدم أكثر من نصف الفيلق في صف متراس، فيتم الحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص. لكن قبل الإعدام، على كل جندي أن يحفر قبره الخاص به.”[...]

”توجه الأوامر على المحكوم عليهم بأن ينتزعوا ثيابهم [...] لكي لا تتلطح ثيابهم العسكرية بالدم أو تتمزق بالرصاص. فيتخلص الشيوعيون ببطء من قمصانهم ويربطون ألبستهم على شكل طرد [...] ثم يحفرون قبورهم وهم عراة [...] يصدر أمر ويلمع وميض في الليل. وتدوي الطلقات [...] لا يزال الشيوعيون واقفين، منتصبين تماماً. صلية ثانية. الطلقات تصيب القلب مباشرة، وتنبجس سيول من الدم [...]” (5).

تسبق الرواية حتى في أدق التفاصيل الطرائق التي ستستخدمها القوات الخاصة النازية، قوات ال-S.S. (*)، حين ستحتل القوات الألمانية الاتحاد السوفييتي، خلال الحرب العالمية الثانية: المذابح ضد المفوضين السياسيين واليهود المجرين على حفر قبورهم. ويتعلق الأمر فضلاً عن ذلك، بأسرى حرب. هاكم ما كان وجه ”المدافعين عن الديمقراطية” ضد ”الديكتاتورية البلشفية”. يذكر الفريهر فون بوتمر في كتابه المذكور سابقاً أن:

”التشيكوسلوفاكيين [أسرى الحرب الذين سلحتهم الامبريالية ضد سلطة السوفييتات في صيف 1918] والسيبريين يتصرفون بصورة عديمة الذمة تماماً حيال أعضاء السوفييتات الذين كانوا يقعون في قبضتهم، إن العدد الكبير من الإعدامات ترك تأثيراً عميقاً في نفوس كل البلاشفة” (6).

هذا ويلاحظ أيضاً الكاتب الألماني ألفونس باكيه، مراسل الفرانكفورت زايونغ في روسيا، أنه بعد احتلال ياروسلاف المؤقت، في تموز/يوليو 1918، أعدمت الثورة المضادة أعضاء السوفييت البلاشفة، بمشاركة نشطة هذه المرة من الاشتراكيين-الثوريين.

هل يجب أن نذكر بأنه في الفترة نفسها، قتل إرهابيون اشتراكيون-ثوريون يساريون قياديين بلاشفة بين الأكثر أهمية، لاسيما فولود ارسكي وأرويتسكي؟ واقترفت

جداً التي تمت بلورتها وجرى تطبيقها آنذاك (8). إن هذا ”النموذج” لم يطلق دينامية قادرة على إخراج البلد من المجاعة المتنامية. ولقد تسبب ببليلة في النفوس تمكن ستالين في 1928-1934 من استعادتها بصورة تهكمية والضرب على أوتارها.

مسألة مفاوضات السلام

إن الحرب الأهلية وحرب التدخل من جانب الدول الامبريالية ضد روسيا السوفييتات، وبوجه خاص من جانب الامبريالية الألمانية، تفسران جزئياً أصول ”شيوعية الحرب” وانحرافتها.

لكننا نقع هنا على خطأ مهم آخر اقترفته، خلال مفاوضات برسييت-ليتوفسك، غالبية القادة والكادرات البلشفية، باستثناء لينين الذي بلغ آنذاك قمة بعد نظره السياسي، ونحن نقصد التأخر في عقد الصلح المنفصل مع الإمبراطوريات المركزية. فلقد كان هنالك فرق أساسي بين شروط الصلح التي عرضتها تلك الإمبراطوريات خلال المرحلة الأولى من مفاوضات برسييت-ليتوفسك، التي افتتحت في كانون الأول/ديسمبر 1917، والشروط المنتزعة بعد وقف السوفييتات لتلك المفاوضات واستئناف الجيش الألماني تقدمه.

فالشروط الأولى كان يقبل بها قسم مهم من الرأي العام العمالي والمديني البرجوازي الصغير. أما الثانية فجرى الإحساس بها، بشكل واسع، كإذلال قومي وخيانة لمصالح بروليتاريا الاتحاد السوفييتي والبروليتاريا العالمية. فضلاً عن ذلك، كانت تستتبع إشراف ألمانيا الإمبراطورية على أوكرانيا وقمع الحركة الفلاحية الأوكرانية. ولقد كانت ردود الفعل عنيفة مذاك، وتسببت بضرب التحالف بين البلاشفة والاشتراكيين-الثوريين اليساريين، وحفزت الحرب الأهلية بشدة. لقد رفضت غالبية اللجنة المركزية والكوادر البلشفية التوقيع السريع لشروط الصلح الناجمة عن المرحلة الأولى من مفاوضات برسييت ليتوفسك. ويمكنها أن تتذرع لصالحها -كما تروتسكي لصالح موقفه الوسيط ”لا حرب ولا سلم”- بواقع أن موقفها كان يتطابق مع مشاعر غالبية سكان المدن. لكنه لم يكن يتطابق مع مشاعر غالبية الفلاحين، ناهيك عن جنود جيش في حالة تفكك قصوى.

وبوجه خاص، لم يكن ذلك الموقف يفضي إلى أي بديل ملموس الإطاحة الفورية لحكم آل هوهنزولرن وآل هابسبورغ؟ من يمكن أن يضمن ذلك؟ التنظيم الفوري لـ”حرب ثورية”؟ وهل ذلك ممكن بواسطة جيش لا وجود له (9)؟

ترتب على ذلك اتجاه معمم إلى المضاربة والسوق السوداء، جاء بوجه خاص لغير مصلحة الشرائح الأشد فقراً.

كان تروتسكي، قائد الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية، على رأس جيش مؤلف من ملايين الفلاحين، في الجانب الأساسي منه، وكان يسافر باستمرار عبر البلد الشاسع بحمله، وبسبب ذلك، أدرك أفضل من لينين وقادة الحزب الآخرين اهتمامات الفلاحين المباشرة. كان قد اقترح إذاً قبل لينين بسنة، التخلي عن "شيوعية الحرب" لصالح التبنى المبكر لسياسة أكثر مرانة، هي "النيب" ("السياسة الاقتصادية الجديدة"). ولقد اصطدم آنذاك بمقاومة لينين وغالبية القيادة (6).

إننا نؤيد في هذا الصدد حكم المؤرخ السوفييتي روي ميدفيديف الذي رأى أن محاولة متابعة سياسة مصادرة القمح، بعد نهاية الحرب الأهلية، تسببت بأزمة 1921 الاجتماعية. بما في ذلك انتفاضة كرونشطاط. لقد كان ذلك خطأ خطيراً، كلف غالباً (7).

فضلاً عن ذلك، كانت البروليتاريا قد ضعفت، في ظل "شيوعية الحرب"، ليس فقط عددياً بل كذلك مادياً ومعنوياً. ففي عام 1921، لم يكن المنتج الصناعي ليستهلك خلال الإنتاج إلا 30% من الطاقة التي كان قد استهلكها في 1913-1914، وأقل من نصف ما استهلكه في 1916-1917. وقد أدى ذلك إلى هبوط جذري في إنتاجية العمل.

لقد أضفى البعض طابعاً مثالياً على سياسية "شيوعية الحرب"، عبر التشديد على الانتقال إلى أشكال إنتاج وتوزيع "شيوعية مباشرة"، إن كريتسمان، الذي نستعير منه المعطيات الإحصائية التي أوردناها، قبل قليل، يتكلم في هذا المجال على "سنوات بطولية للثورة الروسية الكبرى" (7). وكثيرون بين القادة البلاشفة من حذوا حذو البعض جزئياً.

فهؤلاء الذين جعلوا من الضرورة قانوناً، حوّلوا إكراهات النقص [في المواد الغذائية] والتقنيين إلى نظريات، وأضافوا طابعاً مثالياً على العودة إلى الاقتصاد "الطبيعي" (المزيد من الدقة اقتصاد ثلاثي: اقتصاد معاش، واقتصاد مقايضة، واقتصاد نقدي).

إن كل التراث الماركسي وكل عقل البروليتاريا السليم يقفان مع ذلك ضد "شيوعية البؤس" هذه، مهما تكن جذابة ومثيرة - بالنسبة للمستقبل! - "النماذج" المساواتية

اشتراكية-ثورية يسارية، هي فاني كبلان، محاولة اغتيال ضد لينين كادت تكلفه حياته. وقد كان مؤلفون بلاشفة على حق حين أكدوا أنه:

"لقد تشكّل "الجيش الشعبي" الأبيض المزعوم [...] تحت رشقات البنادق التشيكوسلوفاكية، خلف جبال من جثث زهرة البروليتاريا الخالصة في سيبيريا والأورال" (7).

إن محاولات الأحزاب التوفيقية خلق نظام اسم نظام "الجمعية التأسيسية" أخفقت بسرعة. أعادت انقلابات وضع السلطة بين يدي ديكتاتورين عسكريين من أمثال الأميرال كولتشاك أو الجنرال رانغل (8).

ديكتاتورية بيضاء أو سلطة سوفييتات

لم يكن الخيار الملموس بين ديمقراطية برجوازية وديكتاتورية بلشفية، بل بين ديكتاتورية مضادة للثورة وسلطة السوفييتات، ليس من شك في الطابع الديكتاتوري للثورة المضادة، لم يكن الخيار الملموس بين ديمقراطية برجوازية وديكتاتورية بلشفية، بل بين ديكتاتورية مضادة للثورة وسلطة السوفييتات، إن جون ريس نقل بشكل جيد سياسة الإرهاب التي كانت تبناها القوى الرجعية:

"كلما كان الإرهاب أشد، كلما كانت انتصاراتنا أعظم، هكذا كان يعلن كورنيولوف، يجب إنقاذ روسيا حتى إذا كان علينا لأجل ذلك أن نشغل النار في نصف (الأراضي) ونهرق دم ثلاثة أرباع الروس."

كان الهمتان (** سيمونوف موضوعاً تحت سلطة الجنرال الأبيض كولتشاك (9)، إن مشهد المناطق الواقعة تحت سيطرته لم يكن يترك أي التباس بخصوص طبيعة حكمه:

"نساء ورجال بريئون مشنوقون بالدزينات على أعمدة التلغراف، قرب عاصمته، كانت قواته ترش بالرشاشات شاحنات ملأى بالضحايا في حقول الإعدام على امتداد سكة الحديد."

وبأوامر من قيادي أبيض آخر هو البارون أورغان-ستيرنبرغ: "كان رجال ونساء يموتون بضربات العصي، أو مشنوقين، أو بقطع الرأس، أو بتقطيع أعضاء الجسم، ضحايا عدد

لا يحصى من أعمال التعذيب الأخرى التي كانت تخوّل كائناً حياً على ما سماه أحد الشهود "كتلة شوهاء من الدم". وقد وصف عضو في جهاز أورغان ستيرنبرغ الطبي أمراً كتبه البارون على أنه "نأخ دماغ مريض لشخص مختل ومجنون سلطة متعطش للدم البشري" (10).

المذابح ضد اليهود (البوغروم)

في 1918-1921، كانت أوكرانيا مسرحاً لأسوأ أنواع البوغروم. تلك المذابح المقترفة ضد الجماعات اليهودية، التي حدث أن عرفت أوروباً حتى "الحل النهائي"، على يد النازيين. وبحسب زفي جيتلمان، تمت ألفاً مذبحة من بينها 1200 أوكرانيا. وقدّر الكاتب عدد الضحايا الكلي بـ 150 ألفاً. وقد تلازمت تلك المذابح مع فظائع لم يكن لها مثيل: "كان الرجال يدفنون حتى العنق، ثم يقتلون بحوافز الجياد الموجهة نحوهم، أو يمزقون إرباً بواسطة جياد تشد في اتجاهين مختلفين، وكان أولاد يُحقون على جدران أمام بصر والديهم، وكانت النساء الحوامل أهدافاً مفضلة، بحيث يتم قتل أجنتهن أمامهن. وقد جرى اغتصاب آلاف النساء، والمئات بينهن أصبن بالجنون من جراء تلك التجربة" (11).

هذه المذابح نظمها ببرود وعن سابق تصور وتصميم القادة المناهضون للثورة. وكما لاحظ المؤلف الانكليزي بروس لنكولن، وهو ذاته مفرد في الرجعية:

"لم تعد المذابح ضد اليهود انفجارات عفوية للحقد الديني والعرقى. كانت الآن حوادث محسوبة ببرود، موسومة باغتصابات جماعية، ووحشية قصوى وتدميرات لم يسبق لها مثيل. في نهاية شهر آب/أغسطس فقط، اغتصب البيض، ضمن جماعة كرممشوك اليهودية، 350 امرأة، من بينهن نساء حبالى، ونساء وضعن للتو مولوداً، وحتى نساء محتضرات، على وشك الموت" (12).

لقد كانت الثورة المضادة تعتمد على جيش الاحتلال الألماني. وحين استولى هذا الأخير على مدينة أوديسا وضواحيها، أصدر إعلاناً، مؤرخاً في 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1918، نُشر لاحقاً في صحيفة نيو ناشريشتن، الناطقة بلسانه، والتي أكدت بوجه خاص ما يلي:

ومع ذلك، لو أن البلاشفة عارضوا الرغبة في تقرير المصير لدى الشعوب المدموجة قسراً في الإمبراطورية القيصريّة، لو كانوا قد عارضوا التعطش إلى الأرض لدى الغالبية العظمى من الفلاحين، لكانوا خسروا السلطة حتماً. إن ما حدث في الاتحاد السوفييتي بعد عام 1928، وما يحدث حالياً، يثبت ذلك بشكل مأساوي.

ففي الواقع، إذا كانت القيادة البلشفية والكوادر البلشفيين قد أخطأوا في هذا المجال -لينين وتروتسكي أقل من الآخرين بكثير- فلقد كان ذلك بنتيجة عصبوية يسارية لا انتهازية مفردة. ويمكن فضلاً عن ذلك أن نرد ضد روزا، بخصوص هذه المسائل، حجة "التوازي" مع استدلال كاوتسكي. ذلك أن كاوتسكي هو الآخر يتهم لينين وتروتسكي بالانتهازية حيال الفلاحين.

التحالف العمالي والفلاحي وشيوعية الحرب

يصعب أن نحكم إلى أي حد كانت سياسية مصادرة القمح على يد السلطة السوفييتية المحاصرة، المسماة سياسة "شيوعية الحرب"، أمراً لا بد منه، إلى هذا الحد أو ذاك على الأقل، في الأعوام 1918-1920. لكنه من المؤكد أن تلك السياسة كانت تهدد أكثر فأكثر بضرر التحالف العمالي-الفلاحي، وهو قاعدة السلطة السوفييتية بالذات (5).

وليس أقل تأكيداً أن تلك السياسة كانت تفضي إلى تراجع أكثر فأكثر حدة على صعيد قوى الإنتاج، وقبل كل شيء إنتاج المواد الغذائية، وهو تراجع كان يهدد كامل الاقتصاد الروسي بالانهيار.

كان الإنتاج الزراعي، الحبوبى بشكل أساسي، قد تراجع بنسبة 30% تقريباً، وقطيع الخيل بنسبة 25%، والقطيع البقري بنسبة 20%، وقطيع الخنازير بنسبة 28%، والإنتاج الصناعي بنسبة 60% تقريباً. ونتيجة مبادلة الكمية نفسها من القمح، لم يعد الفلاح يحصل على أكثر من 5% من المنتجات الصناعية التي كان قد تلقاها في 1917-1918. من هنا رفض بيع القمح مقابل المال الذي لا قيمة له عملياً. ومن هنا الاضطرار إلى مصادرة القمح.

لكن من هنا أيضاً حصول سقوط مطلق لإنتاج القمح لا تراجع بسيط للفلاحين نحو اقتصاد البقاء، وإذا كان إنتاج القمح قد انخفض، كان هناك، على المدى الطويل، قدر متناقص من الأشياء الممكن مصادرتها.

البيروقراطية العنصر الوحيد الذي يبقى نشيطاً"- يدل على بعد نظر وقدرة على التحليل النظري فائقين.

ونحن نقدر أن روزا كانت محقة أيضاً حين كتبت أن:

"الخطأ الأساسي لنظرية لينين-تروتسكي هو أنهما، على غرار كاوتسكي، يعارضان الديمقراطية بالدكتاتورية [...] فكاوتسكي يتخذ قراره لصالح الديمقراطية، بالطبع، ولصالح الديمقراطية البرجوازية [...] وعلى العكس، اتخذ لينين وتروتسكي قرارها لصالح الديكتاتورية [البروليتارية] [...] إنها رسالة البروليتاريا التاريخية، حين تصل إلى السلطة، أن تخلق في مكان الديمقراطية البرجوازية ديمقراطية اشتراكية، لا أن تدمر أي ديمقراطية. والحال أن الديمقراطية الاشتراكية لا تبدأ فقط في الأرض الموعودة، في حين تكون خلقت البنية التحتية للاقتصاد الاشتراكي، بمثابة هدية ميلاد للشعب الطيب الذي يكون في غضون ذلك قد ساند بإخلاص حفنة الديكتاتوريات الاشتراكيين. إن الديمقراطية تبدأ في الوقت نفسه الذي يبدأ فعل تدمير السيطرة الطبقة [البرجوازية] وبناء الاشتراكية. تبدأ مع لحظة استيلاء الحزب الاشتراكي على السلطة. ليست شيئاً غير ديكتاتورية البروليتاريا.

"أجل، أجل: ديكتاتورية! لكن هذه الديكتاتورية تكمن في طريقة تطبيق الديمقراطية، لا في إلغائها، في مصادرات وطيدة وحازمة للحقوق المكتسبة والشروط الاقتصادية للمجتمع البرجوازي، التي لا يمكن أن يتحقق من دونها التغيير الاشتراكي. لكن هذه الديكتاتورية يجب أن تكون عمل الطبقة لا أقلية صغيرة من القادة باسم الطبقة: بمعنى آخر، ينبغي أن تأتي، تدريجياً، من مشاركة الجماهير النشطة، أن تبقى تحت تأثيرها المباشر، أن تخضع لرقابة الجمهور بكامله، أن تكون نتاجاً للتربية السياسية المتزايدة للجماهير الشعبية" (4).

إلا أن روزا لوكسمبورغ أقل بُعد نظر بكثير حين تنتقد، في الكراسية نفسها، توجهات الحزب البلشفي وسلطة السوفييتات بخصوص مسألة القوميات والمسألة الفلاحية، فهي تتبنى بصددها مواقف دوغمائية لا تأخذ بالحسبان الضرورات السياسية، ولا الضرورات الاقتصادية، سواء منها المباشرة أو التاريخية (بخصوص فترة الانتقال). هي تنتقد الشعارات المركزية لحق تقرير المصير ولتوزيع الأراضي على الذين يشتغلونها، في الإصلاح الزراعي، على أساس أنها "برجوازية صغيرة" وانتهازية.

"لقد دخلنا الأراضي الروسية بنيتة إعادة النظام وخرير البلد من الغاصبين البلاشفة [...] كل العناصر المضرة بروسيا، أي البلاشفة ومن يدعمونهم، تعلن منذ الآن أنهم خارجون على القانون، ومن يستقبلهم سوف يحوّل إلى المحكمة العسكرية" (13).

إن لائحة الفظائع التي ارتكبتها البيض يمكن أن توسّع إلى ما لا نهاية له:

"المذابح التي ارتكبتها يودنتيش (650 شخصاً أطلق عليهم الرصاص أو شنقوا في مدينة يامبورغ وحدها في آب/أغسطس 1919) [...]، والعصابات البلطيقية والألمان التابعون لفون در غولتز، في ريغا (4000 ضحية تقريباً، [...] وكولتشتاك (ألف جندي أحمر أحرقوا أحياء في بيرم خلال انسحابه [...])" (14).

الثورة المضادة الاجتماعية

كان لـ"البديل السياسي" من سلطة المجالس، بالطبع، مضمون اجتماعي-اقتصادي محدد، كما هي الحال خلال أي ثورة اجتماعية، ثمة حيث أقام البيض ديكتاتوريتهم، جرى إلغاء مكاسب أوكتوبر بسرعة، إذا لم يكن على الفور، استبعاد المالكون العقاريون ملكية حقولهم، وألغيت حقوق الأقليات القومية، وجرى اضطهاد السوفييات بشراسة، كما جرى الإنكار الجذري لحقوق العمال الديمقراطية، هذا هو ما تسبب بهزيمة البيض.

"كان عامل أساسي وراء هزيمة كولتشتاك هو معنويات قواته الهابطة، كان أمراً متكرراً أن يفر الجنود خلال معركة للانضمام إلى معسكرات الشيوعية، وكان عامل آخر هو عجزه عن كسب السكان، الذين وإن لم يكونوا موالين إطلاقاً للشيوعية، كانوا يفضلون سلطة السوفييتات في نهاية المطاف"

"كان هنالك أسباب كثيرة وراء انتصار الجيش الأحمر في الحرب الأهلية، لكن معظمها يتلخص في واقع بسيط: إن الشعب، منظورا إليه ككل، كان يفضل، على الرغم من عدم شعبية الشيوعيين، نظام سوفييتات على الإمكانيات الأخرى المتاحة، لم يكن الفلاحون يحبون هذه الجبهة، ولا تلك، وكانوا يتمنون بوجه خاص أن يتركوا حالهم، لكن لحظة الاختيار، كانوا يفضلون الشيوعيين، الذين يعطونهم الأرض، على البيض الذين يأخذونها منهم، أو يهددونهم باستعادتها" (15).

التحرر الذاتي

إن تصوراً كهذا، توجُّهاً سياسياً كهذا، يتعارضان مع ما كانه إسهام ماركس الرئيسي في النظرية الاشتراكية (بما فه نظرية التنظيم الثوري): فكرة التحرر الذاتي والتنظيم الذاتي المتنامي للبروليتاريا. سوف يكون حرر الشغيلة ناتج عمل الشغيلة أنفسهم، لا عمل النقابات أو الأحزاب، أو الحكومات أو الدول. فهذه الأخيرة أدوات لا غنى عنها في هذه العملية التاريخية، لكنها لا يمكن أبداً أن تخل محل النشاط الخاص بذوي الأجر والشرائح الأخرى المستغلة أو المضطهدة. لا يمكن تجاهل الدور التحرري الأساسي لهذا النشاط الذاتي.

إنه من قبيل تجاهل الدور المحرك للمصالح المادية والاجتماعية في التاريخ، أن يتم افتراض أن الإيديولوجية الاستبدالية خلقت تبنين البقرطة. إن وجود البيروقراطية العمالية بالأحرى هو الذي أنتج الإيديولوجية الاستبدالية. لكن ما أن ولدت هذه الإيديولوجية، حتى شجعت بدورها عملية التبقرط الموضوعية.

موقف روزا لوكسمبورغ

هذا ما كانت قد فهمته روزا لوكسمبورغ حين حذرت القادة البلاشفة من الخطر. في تعليقاتها الأولى على الثورة الروسية: "لكن إذ يتم خنق السياسية في كل البلد، من المحتمل أن تنشأ الحياة أكثر فأكثر في السوفييتات بالذات. فمن دون انتخابات عامة، ومن دون حرية غير محدودة للصحافة والاجتماع، من دون صراع حر بين الآراء تموت الحياة في كل المؤسسات السياسية، تصبح حياة ظاهرة، حيث البيروقراطية تكون العنصر الوحيد الذي يبقى نشطاً" (3).

إن هذا الاستشهاد من لوكسمبورغ لا يصف بشكل صحيح حال الحياة العامة في روسيا عام 1918. فلقد كان ثمة آنذاك تنوع وصراع أفكار سياسية بالغ الحيوية، مع نشاط شرعي أو شبه شرعي للمنظمات العديدة. لقد كتبت روزا كراستها في الجن، ولم تكن تمتلك معلومات كافية.

لكنها تقدم هنا تشخيصاً نقدياً ملفتاً للنظر ونبويّاً لآجهاات النمو على مدى أبعد، لاسيما انطلاقاً من 1920-1921. وكونها صاغته منذ صيف 1918- "تكون

هذا إذاً، هو ما جعل البيض ينهزمون. لم يستطيعوا الحصول على قاعدة شعبية أو إعادة تكوينها. كانت جيوشهم في معظمها جيوش ضباط، من دون قدرة على تطويع مجندين، أو حتى إرادة ذلك. ومن الواضح إلى أي حد كان هؤلاء الضباط يخشون الفلاحين.

طريق ثالثة؟

إن خصوم أكتوبر، غالباً ما يكون رد فعلهم، إزاء هذا التشخيص الذي يصعب الجدل بشأنه، في اتجاهين متعاكسين تماماً. فالبعض يعترفون بأنه لم تكن هناك قاعدة لنظام ديمقراطي (برجوازي) في روسيا، سواء لأسباب اجتماعية (عد استقرار أقصى، غياب للطبقات الوسطى التي تشكل الدعائم التقليدية للديمقراطية)، أو لأسباب إثنية-ثقافية (غياب التقاليد الديمقراطية في الإمبراطورية الروسية، واتجاه الجماهير للمراوحة بعنف بين السلبية المستسلمة والانفجارات الفوضوية وغير المتحكّم بها).

ضمن هذه الشروط، كان "الانحراف التوتاليتاري" لدى البلاشفة محتوماً، في الوقت نفسه الذي يبقى فيه، أياً يكن، أسوأ من نظام استبدادي يميني.

بالنسبة لآخرين، كانت هنالك، بعد كل حساب، إمكانية طريق ثالثة، وبحسب هؤلاء، لو لم تتم إطاحة نظام كيرنسكي بواسطة "الانقلاب البلشفي" كان يمكن أن يستقر، شيئاً فشيئاً، عبر ممارسة قمع معتدل ضد أقصى اليمين وأقصى اليسار في آن معاً (16). فبعد دعوة الجمعية التأسيسية للانعقاد وتوزيع الأراضي على الفلاحين بطريقة منظمة وشرعية، كان يمكن أن تستقر ديمقراطية برجوازية شبيهة بتلك التي قامت في بولونيا، مع تقييدات بالتأكيد لم تعرفها أوروبا الغربية.

ليست هذه الرؤية واقعية، فهي تبخس تقدير الطابع المنفجر للتناقضات الاجتماعية، فالاعتقاد بأن الرأسماليين كان يمكن أن يوافقوا على تشريع اجتماعي يهدم قدرة مصانعهم على المنافسة، والظن أن ملاك الأراضي كان يمكن أن يقبلوا بتوزيع أراضيهم، بحجة أن جمعية تأسيسية منتخبة بالاقتراع العام كانت حققت إصلاحات كهذه، إنما هو من قبيل تجاهل دروس التاريخ الأوروبي في العشرينيات والثلاثينيات [من هذا القرن].

فخلال تلك السنوات، لم يتم فقط التضييق الشديد من مدى الديمقراطية البرجوازية، لا بل إلغاؤها - ما عدا على صعيد محدود جداً - في بولونيا وبلدان

بحسب هذا التصور. تكون البروليتاريا في غالبيتها ضئيلة الوعي. بحيث لا تستطيع حكم البلد (إن الاشتراكيين-الديمقراطيين من الرأي عينه ويضيفون حتى: بحيث لا تستطيع قيادة نقابة). وفي ما بعد. جرى إدخال حجة جديدة: حجة انحطاطها الطبقي وفسادها (بما في ذلك بواسطة الأرباح المفرطة الكولونيالية).

إن نقطة الانطلاق هذه سرعان ما تقود إلى الاستنتاج القائل إن الحزب يجب أن يحكم بالنيابة عن الطبقة العاملة الموجودة بالفعل. وجهاز الحزب. لا بل قيادته. لا بل "قائده المعصوم عن الخطأ". هم عندئذ الأدوات الحاسمة لتغيير المجتمع. لقد عبر ستالين عن المضمون الفعلي للاستبدالية في صيغة لا تختمل أي التباس: "الكوادر يقررون كل شيء."

إن المذهب الاستبدالي المتعلق بالحزب يغذي تصوراً عمودياً. ودولانياً. وأبويًا وتسلسلياً للسلطة. حتى حين يتم خاشي أسوأ تجاوزات الستالينية وجرائمها. يمكن بالتأكيد أن يحاط بعدد مهم من البنود التقليدية: الحزب (قيادة الحزب) يحكم بالنيابة عن الطبقة العاملة لكنه يعتمد عليها. يعبئها. يسجل ردود فعلها. يصحح أخطاءه الخاصة على ضوء الممارسة. الخ.

لكن كل ذلك لا يعدل في شيء الموقف الأساسي. فليست الطبقة العاملة هي التي تحكم. وتتخذ القرارات ديمقراطياً. إن أقلية صغيرة تقود مكانها.

ضمن هذه الشروط. تكون السوفييتات قد فرغت على القال من مكون حيوي لمضمونها. يمكنها. عند الاقتضاء. أن تلعب دور أداة قتال فعالة ضد العدو الطبقي. لكنها لن تعد تؤمن الممارسة المباشرة للسلطة بواسطة البروليتاريا (أو) الجماهير الكادحة في مجملها.

من دون تعددية حزبية. في الواقع. لا يمكن السوفييتات أن تعرف ديمقراطية حقيقية. لا يمكنها في الواقع أن تختار بالفعل بين بدائل متنوعة على صعيد السياسة الاقتصادية. الاجتماعية. الثقافية. الخ.

بمقدار ما يتخذ إلغاء الديمقراطية السوفيتية وجهاً قمعياً. لم يعد ذلك القمع يستهدف فقط البرجوازية الكبيرة. والمتوسطة والصغيرة. إنه يصيب أيضاً الطبقة العاملة. يمكن التأكيد حتى أنه بقدر ما تكون البروليتاريا كبيرة العدد. ومهينة من وجهة النظر الاجتماعية. بمقدار ما تكون هي المستهدفة في الواقع.

البلطيق. وتقييدها بقوة في فنلندا. لقد ألغيت أيضاً في ألمانيا وإيطاليا. واسبانيا. وهي بلدان ثلاثة أكثر تطوراً بكثير من روسيا عام 1917.

لقد اعترف القادة المناشفة هو ذاتهم بذلك. فدان كتب من جهته أنه:

"بعد أن قوّمت [اللجنة المركزية المنشفية] موازين القوى الفعلية. أفضت إلى استنتاج أن انتصار العناصر التي كانت تزحف إلى بتروغراد -بغض النظر عن نواياها الذاتية- كان عنى حتما انتصاراً أسوأ الثورات المضادة."

ثمن أكتوبر 1917

كان الخيار الوحيد إذاً هو التالي: إما انتصار الثورة الاشتراكية أو انتصار ثورة مضادة بين الأشد دموية. حمل إلى السلطة هتلر روسيا أسوأ أيضاً من هتلر الألماني الذي عرفناه. على ضوء هذا التشخيص وكل ما يستتبعه. يمكن الإجابة عن مسألة معرفة ما إذا كان الثمن الذي دفعته ثورة أكتوبر مرتفعاً جداً. إن جوابنا هو كلا حازمة. كان هزيمة الثورة. عام 1917. كلفت الشعب الروسي وأوروبا ثمناً أبهظ بكثير مما كلف الانتصار.

لكي يزور خصوم أكتوبر الحساب يلجأون إلى لعبة شعوذة استخدموها ضد الثورة الفرنسية. إنهم يجمعون خلط ملط ضحايا الثورة وضحايا الثورة المضادة. إسقاطات الثورة الاقتصادية وإسقاطات الثورة المضادة.

فيم يمكن تحميل الثورة الفرنسية المسؤولية عن ضحايا حروب نابليون؟ وفيم يمكن تحميل ثورة أكتوبر تبعة ضحايا إرهاب البيض وبوغروماتهم؟

يزعم سفطانيون أن الحرب الأهلية والإرهاب الأبيض ليسا سوى ناجين للثورة. والجواب بديهي: أليست الثورة بحد ذاتها. ناج النظام القديم؟ يتم الاصطدام هنا بتصور مدّ تاريخي لا ترتبط مراسيه في الزمان والمكان. تصور لا يتيح. في نهاية المطاف. استخلاص أي استنتاج. فهذه الطريقة. إذ تؤكد إرادة فهم الحركة التاريخية في مجملها. تحجب في الواقع المسؤولية الدقيقة لقوى اجتماعية وسياسية محددة. في علاقة بأفعال خاصة.

إن للمشكلة من جهةٍ أخرى بعداً لا ينبغي السعي لطمسه. ففي زمن الثورة. يكون الشعب الكادح عموماً مدفوعاً بادئ ذي بدء نحو ردود فعلٍ شهمة. لكن إزاء الحرب الأهلية. وحين يجد نفسه وقد استفزّه واعتدى عليه تكراراً خصومه الطبقيون. يميل أيضاً إلى استخدام العنف المباشر. لا بل "المتوحش" أحياناً. لقد سبق أن ذكر بابوف. في رسالة إلى زوجته. يعلّق فيها على إعدام الأميرة دولامبال بعد الاستيلاء على الباستيل. بأن هذه التجاوزات هي الناجح الحتمي إلى ابعث الحدود لقرون من اصطدام الشعب بعنف مضطهديه وقساوتهم (17). والأمل ضمن شروط كهذه بأن تبدي الجماهير. في كل الظروف. احتراماً دقيقاً لحقوق الرجل والمرأة. هو من قبيل المطالبة حقاً بحدوث معجزة.

وفي الأخير. إن ما تخفيه الإدانات المجردة. الأخلاقية الزائفة. للعنف الثوري. من دون اعتبار السياق التاريخي الدقيق. إنما هو حكم طبقي مسبق بالغ الفجاجة. إن العنف التقليدي للممسكين بزمام السلطة "طبيعي". إنه يمثل "أهون الشرين". مهما يكن مداه واتساعه. والجواب الاحتجاجي للشعب المنتفض هو "أسوأ". تحديداً. حتى إذا كان مداه أضيق بما لا يقاس من مدى جواب المالكين. إن النفاق بادٍ للعيان.

هذا الحكم المسبق الطبقي يخفي غالباً خوفاً من الجماهير حافزاً الاجتماعي بديهي مجدداً. وكما يقول مؤرخ فرنسي معتدل بالأحرى:

"بعد عام 1861. اهتمت الانتليجنسيا والدولة باستمرار بتأطير الشعب. خوفاً من طاقته الكامنة الفوضوية والمدمرة. إن خوفهما المشترك (الناجم عن الجهل) منعهما من أن يكوّنا عن هذا الأخير فكرة موضوعية. تقوم على معرفة ملموسة بحقائق البلد. لذا فقد استسلمتا. كلتاهما. للستيخينوست (القوة الأولية) الشعبية في أوائل القرن العشرين" (18).

ومن الخطأ بالدرجة نفسها. أن يراد جمع أكلاف ثورة اكتوبر 1917 والأكلاف. اللاحقة. للنظام الستاليني. فالستالينية. فالستالينية هي في الواقع ناجح ثورة مضادة بيروقراطية حقيقية. والخلط بين الاثنين يكشف بخس تقدير. لا بل نفيًا. لاتساع هذه الأخيرة. للقطع الجذري الذي شكّله "الترميديور السوفييتي" -الثورة المضادة البيروقراطية- بالنسبة لأكتوبر والفترة التي تلتها مباشرة (19).

"حظر أحزاب المعارضة أدى إلى حظر التكتلات [داخل الحزب البلشفي]. وأدى حظر التكتلات إلى حظر التفكير بشكل مغاير لتفكير الزعيم المعصوم عن الخطأ. وكانت نتيجة تراصية الحزب البوليسية الإفلات البيروقراطي من العقاب. الذي بات بدوره سبباً لكل أنواع الإحباط والفساد" (1).

وبعد عامين. وفي البرنامج الانتقالي. الذي كتبه عام 1938 لكونفراس تأسيس الأمية الرابعة. أيد بصراحة التعددية الحزبية:

"لا يمكن تصور ديمقراطية السوفييتات من دون إضفاء الشرعية على الأحزاب السوفييتية. إن العمال والفلاحين. هم بالذات. سوف يبيّنون باقتراعهم الحر أي أحزاب يعتبرونها سوفييتية" (2).

ولا جدال في أن العمال كانوا يعتبرون المناشفة. عام 1920. حزباً سوفييتياً. لأن هؤلاء حصلوا على عدد مهم من النواب. لاسيما في شاركوف وموسكو. والملاحظة ذاتها تنطبق من جهة أخرى على الفوضويين.

إن حظر الأحزاب السوفييتية. وحظر التكتلات داخل الحزب الحاكم. الذي تلاه بشكل منطقي (كل تكتل هو في الواقع حزب آخر في حالة الكمون). كانا متصويرين بلا شك كتدبيرين مؤقتين. مرتبطين بظروف خاصة. وكانا سيّليان إذا حين يتحسن الوضع الموضوعي. وينبغي بالطبع أن نتساءل ماذا كانت النتائج المحددة لهذه القرارات المحددة التي اتخذت في فترة محددة.

لكن علينا أن نثير سؤالاً آخر. متميزاً بوضوح. وذا مغزى أعم: ما كانت نتائج النظريات التي جرى تقديمها لتبرير أعمال حظر كهذه. وإن تكن ظرفية؟ نقدّر أن التبريرات النظرية تسببت. على المدى الأطول. بأضرار أكثر بكثير من التدابير بحد ذاته. وأنها لا تزال تسبب أضراراً إلى اليوم.

الخطر الاستبدالي

إن حظر الأحزاب السوفييتية يقوم على تصور استبدالي لبناء الاشتراكية-وللسياسة الاشتراكية/الشيوعية عموماً. علماً أنه تصور ندد به تروتسكي دائماً بقوة (إلا خلال "السنوات السوداء" 1920-1921). وأن لينين كافحه هو الآخر خلال قسم كبير من حياته.

الفصل الخامس - التوجه البلشفي: تحليل نقدي

كان ثورة أكتوبر. في الجانب الأساسي منها، نأج التناقضات الاجتماعية الموضوعية التي اكتسبت دينامية متفجرة لا يمكن كبحها، وتطور موازين القوى بين الطبقات والشرائح الاجتماعية العاملة في هذا الإطار. لقد نتجت أيضاً من نشاط الحزب البلشفي لحل عُقد التناقضات هذه بما يؤمّن مصلحة الجماهير الكادحة والبروليتاريا العالمية.

بعد أن قلنا هذا، وعلى ضوء التطور اللاحق لروسيا السوفييتات وللأخذ السوفييتي، يجب أن نتساءل إذا لم تكن بعض السياسات التي مارسها الحزب البلشفي بعد الاستيلاء على السلطة، شجعت سيرورة الانحطاط البيروقراطي في أول دولة عمالية.

لا شك أن هذا الانحطاط البيروقراطي، في الأعوام ما بين 1920 و1930، لم يطلقه توجه هذا الحزب، أو يتسبب به بشكل أساسي. هو أيضاً يمد جذوره في التناقضات الموضوعية للمجتمع السوفييتي والوضع العالمي اللذين كانا سائدين في ذلك الحين. ومع ذلك، فالقرارات الخاصة بالحزب البلشفي والمواقف الملموسة لهذا الحزب - أو لشئى مكونات قيادته - في فترات محددة، وبخصوص مشكلات محددة، كان لها هي أيضاً تأثيرها على سيرورة تبقرط النظام، ينبغي أن نحاول إذا أن نفهم ما هي الأخطاء التي أمكن اقترافها.

حظر الأحزاب السوفييتية

كان الأخطر بين تلك الأخطاء هو حظر الأحزاب السوفييتية في الوقت نفسه الذي كانت السلطة الثورية قد كسبت فيه نهائياً الحرب الأهلية لأعوام 1918-1920. ومع أن تروتسكي كان قليل الاندفاع إلى النقد الذاتي بخصوص قرارات القيادة والحكومة التي كان العضو الأكثر نفوذاً فيها بعد لينين، فلقد صاغ في هذا الصدد حكيمين صريحين.

كتب عام 1936 أن:

لقد كانت كلفة الستالينية مأساوية بالنسبة للبروليتاريا السوفييتية والعالمية. ويمكن اليوم أن نقيس مداها.

إن اتساع هذه الثورة المضادة الستالينية يعبر عن المأساة التاريخية التي حدثت أكثر بكثير مما عن تحليلات دقيقة للمسؤولية المزعومة لأفكار لينين (لا بل أفكار ماركس) عن جرائم ستالين. لقد اغتال ستالين في العشرينيات والثلاثينيات مليون شيوعي، فهل يمكن أن نوّكد بصورة جدية أن ذلك ليس سوى "تفصيل تاريخي"؟ أليس من البشاعة بمكان أن نساوي بين الجلادين والضحايا، من دون تمييز (20)؟

عرب النص وقدمه : كميل داغر

إحالات:

(1) ج. سادول، Notes sur la révolution bolchévique، باريس، 1930، ص 288.

(2) كان كيرنسكي، الإصلاحى، رئيس الحكومة المؤقتة. ولقد كان الوضع داخل القوات المسلحة، وإرادة السلام لدى الجنود يصلان إلى حد أنه لم يكن يتوصل إلى تنظيم هجمات عسكرية وفعالة بمواجهة القوات الألمانية، وهو ما كان اليمين يأخذه عليه بقوة. فلندكر بأن قسماً كبيراً من بولونيا كان قد دمج بالإمبراطورية الروسية.

(3) المرجع ذاته، ص 322.

(4) ك. ف. بوتمر، Mit Graf Mirbach in Moskau، توبنجن 1922، ص 56.

(5) أ. ر. وليامز، Durch die russische Revolution، برلين 1922، ص 233-234.

(*) اختصاراً Shutz-Staffel، أو أفواج الحماية. تأسست منذ عام 1925 كحرس شخصي لهتلر، ثم كلفت لاحقاً بحراسة معسكرات التجميع، والأراضي التي احتلها الرايخ (المعرب).

(6) بوتمر، مرجع مذكور، ص 62.

سجين بلشفي أو متعاطف مع البلاشفة في سجون كيرنسكي. معظمهم من الجنود.

(17) بابوف هو رجل سياسة في ثورة 1789 الفرنسية. صاغ من يسار الراديكالية الديمقراطية وجهة نظر شيوعية. مات على المقصلة في عام 1797.

(18) م. رايف، Comprendre l'Ancien Régime Russe, باريس، 1982، ص 176.

(19) لقد عاجنا هذه المشكلات، بما فيها مشكلة الطبيعة النوعية الخاصة للتروميدور السوفييتي. في مؤلفنا الجديد Power and Money-A marxist Theory of Bureaucracy لندن، 1992. إن عبارة "ترميدور" تدل، أصلاً، على ثورة سياسية خلال الثورة الفرنسية ما بين 1789 و1815. هذه الثورة المضادة، التي بدأت عام 1794 (كان "ترميدور" شهراً في تقويم ذلك العصر)، فككت الأشكال الديمقراطية والشعبية المنبثقة من الانتفاضة ضد النظام القديم، من دون أن تعيد النظر في طابعه البرجوازي. وعلى سبيل المماثلة، يدل "الترميدور السوفييتي" على الثورة المضادة الستالينية التي صفت الديمقراطية الاشتراكية، وأرست ديكتاتورية بيروقراطية، من دون أن تعيد الرأسسالية على روسيا.

(20) يعطي المؤرخ م. فيرو الأرقام التالية التي تعبر عن تحول الحزب الشيوعي السوفييتي. بين الستة أشهر الأولى من عام 1924 والستة أشهر الثانية من عام 1925، هبط عدد العمال بين المرشحين لعضوية الحزب من 64.5 إلى 43.8%. أليس هذا بليغاً؟ (م. فيرو، مرجع مذكور، ص 246) إن هذا لينبئ بتحويلات أشد عمقاً أيضاً.

(8) في 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1918، "كان قد أعلن الأميرال كولتشاك [...] قائداً أعلى لكل روسيا [...] وقد وافق ممثلو بريطانيا وفرنسا على الانقلاب [...] شجب الاشتراكيون-الثوريون، المتخفون في أوف، فرق المتطوعين، لكنهم كانوا عاجزين عن المضي أبعد من ذلك. وقد أقام بعضهم سلاماً هشاً مع الشيوعيين. أما الاشتراكيان-الثوريان العضوان في لجنة الإدارة، زينوفيف وأفكستيف، فأجبرا على الهجرة. وهرب تشيرنوف في الأخير إلى الخارج (ل. شابيرو، مرجع مذكور، ص 175).

(**)الاهتمان زعيم قوقازي في عهد الاستقلال (العرب).

(9) فلندكر بأن تعبير "الأبيض" مستخدم إجمالاً للدلالة على المعادين للثورة. خلافاً لـ"الحمراء"، إن جنرالاً أبيض هو إذا جنرال في الجيش المناهض للثورة.

(10) جون ريس، "دفاعاً عن أكتوبر"، انترناشونال سوشاليسم، العدد 52، خريف 1991.

(11) ز. جيتلمان A Century of Ambivalence-The Jews of Russia and the Soviet Union.

(12) لنكولن، Red Victory، 1989، ص 322-323.

(13) ورد الاستشهاد في كتاب ب. برايس، المراسل في روسيا للصحيفة اليومية الليبرالية البريطانية مانشستر غارديان Die Russische Revolution هامبرغ، 1921، ص 465.

(14) موريزي، La Renaissance du livre Chez Lénine et Trostky، باريس، 1922، ص 129.

(15) ل. شابيرو، مرجع مذكور، ص 176، 148.

(16) خلافاً لأسطورة [رائجة] كان نظام كيرنسكي قمعياً للغاية، وإن بطريقة أقل دموية من نظام إبيرت-نوسكه. فعشية أكتوبر، كان ثمة أكثر من عشرة آلاف